وجوه هالكة

ديوان العرب للنشر والتوزيع

اســـــم الكتاب: وجوه هالكة
اســـم المؤلف: ليلى صياح الحسين
التصنيـــــــف: رواية
الحجـــــــم: 14 - 20
عدد الصفحات: 240
سنة الإصـــدار: 2025
رقـــم الطبعة: الأولى

رقم الإيداع: 2471 / 2025
الترقيم الدولي: 1 – 213 – 971 – 977 - 978

تدقيـــق لغوي: فريق ديوان العرب
تصميم غـــلاف: شروق سيد
تنسيق وإخراج: فريق ديوان العرب
للتواصل: dewanalarabegypt@gmail.com
واتساب: 01030502390

وجوه هالكة

رواية

ليلى صياح الحسين

إهداء

إلى طيف أمي وأبي...

إلى ابنتي المدللة ونبض قلبي ورفيقة دربي في هذه الرحلة من الحياة...

إلى ولدي الذي أرى النور والأمل من خلاله...

إلى كلّ قارئ تصفح أوراق روايتي "وجوه هالكة"...

إلى كلّ أسير ومختطف وكلّ شهيد وفقيد...

إلى كلّ أم وأب فقد ولده وأجبره الزمان على تخطي الأمر بالعجز والضعف والمرضْ...

إلى كلّ من ساعدني لتصبح هذه الرواية متداولة بين الناس...

إلى من قرأ وأعجبته كلماتي وشعر بها...

إهداء إلى وطني الذي لا ينفك، يخرج من جراح حتى ينزف من جديد...

ليلى

مقدمة

لم أكن بيدقاً في عرش الأحلام المبعثرة في زمن الرقيق المحدث بأطيافه الفارهة.

ولم أكن أول ضحايا الشر وأول المغتالين على رقعة الحضور بين أقبح رجال الأعمال ونسائهم المزيفين والمتبرجين بأجمل الحليّ والمجوهرات والإكسسوار والملبوسات والحقائب الفاخرة والعطورات التي تزكم الأنوف.

على الرغم من جميع المؤامرات الخبيثة التي أحيكت حولي لم أُفرط بنفسي، ولم أجعل مفاجآت واختبارات القدر، أو من قصاص الروح للروح ثأراً.

رغم حفلات السهر المزيفة، التي كانت تديرها قوى الشر أو تدار في أروقة محافل الأثرياء، من قبل هؤلاء الأشخاص المتملقين الذين يدّعون العفة أو الرقي في أروقتهم، لأجد نفسي أمام عالم منافق، تصهرني الحياة، بفلسفتها كصعلوكه منبوذة في قرارة نفسها.

كنت أميرة في أحداق الحاضرين.

أتزين بعذاب الروح، أجري وراء معرفة حقيقة النسب والألقاب، أجري وراء سراب للمعرفة، وها هم من ولدت من أرحامهم رفضوا بكلّ قوتهم أن يعيدوا طفلتهم إلى كنف أخلاقهم الحميدة، رغم المرار الذي أعيشه.

لم أكتفِ بأن أنزع ذكرياتي من ذاكرتي وأرميها في مستنقع العادات والتقاليد مع أهل الحكايات المزيفة بالعفة والشرف، ولكن تبعت حدس شرياني الأزرق، فكان قصاص الصمت أجمل الحدود وأمَرّ الحدود، ولا يمكن أن تبقى مقصلة الأشواق شاغرة، من دون انتظار، تبعتُ هسهسة حديثي مع الكون، متلذذة ومحتاطة وموجوعة، من حياة اختارت أن أكون إحدى ضحاياها.

وهكذا، وبعد محنة توق موحشة، قررت أن أكون جزءاً من هذه الحياة، ولعبة من دون أن أدري أو من دون أي قصد فضلت التزام الصمت، وأن أختفي وراء مؤامرة السكوت وأن أدسَّ مصل الكبرياء في الرؤوس مع كلّ من يمر معي فيبدو ومن دون قصد اتبعت أسلوب السيد مروان، فأخفيت اللقاح في دهاليز الوقت، لأبقى مصابة بحد العتاب والقلق والتوتر على ما أجهل الطريق إليه.

لايزال كلام السيد مروان، يدوي برأسي بقصص كثيرة عالقة، وكلام يدعو للاستفزاز.

كان يقول لي اسمعي يا إنجي.

في زمن المجاعات لا صوت يعلو أو يستطيع أن يتكلم، غير صوت المال والسلاح، وأنا في زمن المجاعات بالذات أستطيع أن أشتري هذه الأصوات وأدفع ثمن كرامة أي إنسان رغيف خبز.

عندما يأتي الأغنياء إلى أحياء الفقراء، يسرقون منهم حتى الابتسامة.

لم تكن نيّتي، كشيطان قبيح يصنع البؤس لا يكترث للمستحيل الذي يأخذ بأطراف الحديث، ولا تعنيه خلاصات الفراق.

كنت كالنار باسقة في قلب أسد موحش، أزأر في وريدها دم الكبرياء، كلما رميت قبعتي غبطةً بكلمات تلك الحياة الساخرة، تناوشني عيون الزمان المقيت.

لتنتهي قشعريرة اللقاء بأحداث باردة

لا دفء فيها ولا قبل ولا أجيج!

هكذا لا تنتهي الحكاية التي تبدأ كلّ يوم!

كأننا نمسك بطرف العالم.

ندرتها تشدني إلى أسفل قلبي.

وحماقاتها تبعث بي إلى الكبرياء!

****

خيانة

أصوات كثيرة تتجول في المكان.
أحاول جاهدةً أن أميز بين تلك الأصوات، علّ وعسى أن أتعرف إلى أي صوت من الأصوات، التي كنت أسمعها حولي.
أو أميز نبرة صوت أحد من تلك الأصوات الكثيرة التي كنت أسمعها، أو أفهم ما كانوا يتحدثون حولي أو فوق رأسي.
قد تسعفني ذاكرتي، بأن أتذكر لو صوتاً واحداً لأحدهم قد سمعته يوماً ما.
بدأت أحتسب ما أسمعه بأن أتذكر هذه الأصوات المجهولة، قد سمعتها أو مرّت معي في مرحلة ما من حياتي.
على ما بدا لي كنت أحاول جاهدة تذكر أصواتهم، ولكن كلّ محاولاتي باءت بالفشل، حتى أدركت أنني لا أفهم بأي لغة يتكلمون بها، لأنها في الحقيقة غير واضحة، وليست مفهومة بالنسبة لي، لا أعرف أي صوت من تلك الأصوات، التي كانوا يصدرونها.
كان هناك عدة أصوات مختلفة، منها أصوات عربية، أو انكليزية، أو ربما فرنسية، ومنها أصوات غير معروفة أسمعها لأول مرة.
من بين تلك الأصوات التي كانت تطرق سمعي من دون أي تمييز، صوت بدا لي بأنه يتحدث باللغة العبرية أو الباكستانية أو الكردية.

فجأة ظهر الصوت الوحيد الذي بدا لي واضحاً باللغة العربية، كنت أسمعه لأول مرة طوال الوقت.

حضر في مسمعي صوت أحدهم يناده بفرح، ستعود للوعي بعد قليل ها هي تحرك أصابع يديها.

كلّ شيء في تلك اللحظات كان غريباً ومبهماً، لا أعلم ما هو الأمر الجلل، الذي حدث معي، أدى إلى وصولي لهذه الحالة من اللاوعي أو العجز عن تفسير ما أنا عليه الآن.

ما هذا الاسترخاء العميق بين الحلم واليقظة؟ فلا قدرة لي على الحركة أو الاستيقاظ.

أشعر بألم شديد في جميع أنحاء جسدي خاصة عند أسفل بطني وظهري.

بعد لحظات من هذا الشعور بالعجز والإحباط مما كان يحدث حولي بجلبة مثيرة للفضول.

بكلّ جهد استطعت أخيراً أن أفتح عيني اليمنى بصعوبة شديدة، لأرى صاحب الصوت الذي كنت أسمعه عند بدء استيقاظي.

ليصدر صوتاً مبتهجاً بالسرور، فوق رأسي خلال استلقائي على السرير في العناية المركزة.

قائلاً: الحمد لله على سلامتك سيدتي الجميلة، شعرت حينها بالغبن والحيرة.

أول شيء جاء في عقلي وخطر على بالي، من هذا الرجل الذي أراه للوهلة الأولى.

ثم لماذا أنا هنا على هذا السرير؟

وما الذي أتى بي إلى هذا المكان الغريب؟

حاولت جاهدة أن أتذكر ما حدث معي قبل أن أرى ما أنا عليه، أو ما الذي جرى لي حتى وصلت إلى هذه الحالة التي كنت بها أثناء ذلك اليوم الغريب الرهيب.

ذاكرتي الخائنة لم تسعفني بأي حدث أستطيع من خلاله أن أحصل على أي معلومة تفيدني في تلك اللحظات بالذات.

جعلت ذاكرتي في حالة من الإرباك الشديد الدائر في داخلي لمعرفة ما هذه الأشياء المريبة التي تحدث معي حينها.

أو قبل وصولي إلى هذا المكان الغريب العجيب.

كان السؤال الآخر المستغرب.

لماذا ينده عليّ بكلمة سيدتي ولا يذكر اسمي؟

أليس عندي اسم يذكره بدلاً من كلمة سيدتي؟

أجل، يبدو أنه لا يعرف اسمي.

بدأت أقنع نفسي هو بالأصل الطبيب المعالج لحالتي على ما يبدو.

من أين له أن يعرف اسمي؟

يجب أن يكون لي اسم مكتوب بين الأوراق، أو على الإضبارة التي كان يحملها معه، ويكتب التقرير عن حالتي.

وأيضاً قد يكون نوعاً من أنواع "الإتيكيت" المتعارف عليه، بين هذه الطبقة المتعلمة أو بين الطبقة الراقية من الأغنياء، أو المتعلمين والمثقفين.

والسؤال المحير لحظتها.

هل أنا من طبقة الأغنياء أو من طبقة البسطاء والفقراء؟

من أنا أصلاً ومن أكون؟

لو أن أحداً ممن هم حولي، يذكر اسمي لو لمرة واحدة فقط، لأتذكر ما كان اسمي فقط على أقل تقدير قبل أن أصحو في هذا المكان الغريب.

الشيء المستغرب على ما يبدو من كلّ ما شعرت به، أو ما جرى منذ استيقاظي إلى لحظتها، بأن قدمي اليسرى فيها شيء كان يقيدها، أو قد أكون متوهمة أنها مكبلة بالسلاسل الحديدية.

لا أعرف لماذا أنا موجودة هنا، في هذا المكان الغريب.

لماذا يكبلون ساقي ويداي بالسلاسل الحديدية؟

هل أنا مجنونة ومحتجزة في مشفى للمجانين، ليقيدوني كي لا أهرب؟

أو إحدى السجينات اللاتي يخافون أن تهرب من السجن.

بعد لحظات من استيقاظي وتأملي في أرجاء المكان، أدركت بأني محتجزة في غرفة، تبدو لي بأنها غرفة في المشفى، أو كأنني في غرفة الإعدام بالغاز، لا أعلم أين كنت حين استيقظت لأول وهلة من الغيبوبة التي كنت بها.

دوامة من الأسئلة المتكررة في رأسي تدوي وتدور بسرعة أرى وجه الطبيب فوق رأسي يكرر كلامه.

الحمد لله على سلامتك يا سيدتي.

أنت فتاة شجاعة، وبنية جسدك قوية جداً ستتماثلين للشفاء بسرعة وبأقرب وقت ممكن لا تخافي يا أنستي سيتم الاهتمام بك على أحسن وجه.

كنت أسمعه يردد كلمة سيدتي، لأكثر من مرة، وأنا أقول: له أين أنا؟

ما هو اسمي؟

الطبيب الذي رأيته لأول مرة عند استعادة وعيّ، رجلاً في بداية الثلاثينيات من العمر، يرتدي المريول الأبيض وجسده ضخم بعض الشيء، يضع على عينيه الصغيرتين نظارة طبية تميل إلى اللون الأحمر.

شعره لونه بني خفيف بعض الشيء، لكن وجهه أبيض يميل إلى الأصول العربية الشرقية، وقوامه رشيق وجميل.

وأنا أردد كلامي بصعوبة شديدة أريد ماء، أريد أن أشرب الماء.

استدار الطبيب نحو الممرضة التي كانت تقف بجواره وخاطبها بلغتها، بأن تضع بضع قطرات من الماء على شفاهي الجافة، ثم انسحب إلى الخلف لتقوم الممرضة بالاهتمام بي.

بدأ نظري يتجول في المكان بعينين نصف مغمضتين.

في حينها رأيت فتاة عمرها يقارب التاسعة عشر من العمر جالسة على كرسي متحرك، بعيدة عن سريري بضعة أمتار قليلة.

بدا لي وجهها مألوفاً بعض الشيء، أو معروفاً بالنسبة لي لكنني لا أتذكر أين رأيت هذا الوجه الجميل في يوم ما من أيام حياتي.

انتابني شعور جيد بأن وجدت أحداً، قد رأيته أو أعرف من يكون، لكن لا أتذكر أياً من تفاصيل هذا التعارف.

الفتاة الجالسة في الجهة المقابلة أمام سريري، شعرها أشقر طويل تعقده بضفيرة إلى الخلف، عيناها واسعتان عسليتان، تبتسم لي بعيون دامعة، وأيضاً لا تستطيع أن تقترب مني، على الفور لاحظت وجود كدمات على وجهها، يبدو لي أنها تعرضت لحادث مؤلم أو للضرب.

حاولت أن أحدثها أو أسألها عن اسمها لم أستطع، كان تأثير الألم في أسفل بطني وظهري لا يحتمل، بينما كنت أستعيد وعي، حينما كنت أنظر حولي، وأتعرف إلى وجوه الأشخاص الغريبة عني، وأيضاً أسأل نفسي عن مكان وجودي المثير للاستغراب، نظرت بعد لحظات إلى الجهة الأخرى فجأة اختفت الفتاة الشابة الفتية.

بعد عدة ساعات على الاستيقاظ، في مكان لا علم لي به أو أين أنا موجودة.

هل هذا المكان هو مشفى أم عيادة طبية خاصة، أو أي شيء مماثل لمشفى؟

هل حالتي الصحية ستكون جيدة؟

أو أنا في حالة أشبه بأن تتماثل للشفاء؟

ظلت جميع الأسئلة تدوي وتدور في رأسي، إلى أن تذكرت شيئاً مهماً.

أين هي أمي أو أبي وأخواتي؟

لماذا لا أرى أحداً منهم حولي؟

هل عندي عائلة أو أنا يتيمة؟

لماذا لم أرَ أحداً يزورني أو يخبرني بشيء عن الحالة التي أنا بها؟
قد يبدو أني خضعت لعملية جراحية كبيرة وخطيرة جسدي كلّه يؤلمني.
لكن أيضاً لا أعلم ما هذه العملية التي تم إجراؤها لي؟
عند المساء رأيت باب الغرفة يفتح بالمفتاح وبهدوء، دخل الطبيب وبجواره الممرضة، انتابتني البهجة والسرور عندما رأيتهما.
أخيراً سأعلم شيئاً ما عن حالتي، وما الحدث الذي جرى معي وأوصلني إلى ما أنا عليه الآن.
اقترب نحوي الطبيب، يمسك بيده التقرير الطبي عن حالتي.
ثم بدأ يقوم بفحصي، وأخذ قياس النبض وما شابه من كلّ ما يقوم به الأطباء، حين يفحصون المريض الذي أمامهم على السرير، وأول ما تم معاينته لي مكان الجرح في أسفل خاصرتي اليسرى.
عندما اقترب من وجهي ليضع المصباح الصغير الذي يحمله بيده، يفحص عينيّ به أمسكت بيده وسألته.
من أنت؟
ما هو اسمك؟
ابتسم لي بكلّ هدوء ليخبرني، بأنه الطبيب المختص المعالج لحالتي.
اسمه مهند من الحسكة في شمال سورية، وهو ذا أصول كردية من كردستان العراق.
ثم ردد كلامه: بكبرياء، هل تعرفين أحداً من شمال سورية في الحسكة؟

أومأتُ إليه برأسي، يميناً وشمالاً بإشارة مني أنني لا أعرف أحداً هناك.
ضحك بابتسامة رقيقة، رداً على جوابي، حسناً إذاً ارتاحي يا فتاة الآن قليلاً، ستكون كلّ أمورك بخير وفي تحسن إن شاء الله.
لكن الشيء الوحيد المستغرب، من تاريخ استيقاظي إلى هذا الوقت الذي لا أعلم أين أنا موجودة فيه، أو ما الذي أتى بي إلى هذا المكان الغريب.

لماذا هذا الجرح العميق في أسفل بطني وظهري؟
لماذا لا أستطيع حتى أن أتذكر ما هو اسمي أو عمري وما هو عملي؟
لماذا لا أجد أي أحد من أقرباء لي حولي؟
أين أمي وأبي؟
ما هو السبب أو المسبب، لهذا الجرح الكبير في أسفل بطني من الجهة اليسرى؟
يبدو أنني تعرضت لعملية جراحية خطيرة؟
كنت أئن من الوجع، الإحساس بالآلام الشديدة، الملازمة لحالتي منذ لحظة استيقاظي كان رهيباً، بينما الممرضة البيضاء، التي تأتي لتنظيف مكان الجرح صامتة، لا تجيب عن أي سؤال أطرحه، أو مما كنت أردده عليها أثناء وجودها لتنظيف مكان الجرح أو تعقيمه، وتغير الضمادات ولا يهمها ما أسألها إياه، ولا تبدي أي اهتمام عما أريد معرفته منها، حتى عندما كنت

أحاول معرفة أي شيء عن هذا المكان الذي أقيم فيه كانت تتجاهل كلّ ما أريد معرفته منها.

كنت طوال الوقت أسأل نفسي، أين أنا وما تاريخ هذا اليوم؟

أو كم هي الساعة الآن؟

كم من الوقت مضى على وجودي في هذا المكان، وما هي السنة؟ هل نحن في يوم السبت أو الجمعة أو الأحد؟

لم تكن تلك الممرضة الخرساء، تبدي أي اعتبار أو اهتمام لأي سؤال أسأله لها؟

من الذي أتى بي إلى هذا المكان الغريب العجيب؟

كانت تفضل عدم الكلام، بصمت رهيب من دون أي تجاوب معي.

المستغرب منها عدم ظهور أي اهتمام لما أقوله لها، فقط كانت تنظر لي بعينيها الزرقاوين الواسعتين، الظاهر على ملامحها بأنها امرأة في الأربعين من العمر، بشرتها بيضاء ناصعة، طويلة القامة وممتلئة.

تضع على رأسها منديلاً أبيض، تبقي على ملامح وجهها جامدة، من دون أي تعبير أو تغيير يظهر على ملامحها، ينم عن مشاعر الإحساس بالعطف أو الشفقة أو الغضب.

تلك الممرضة الجامدة تنهي عملها بسرعة شديدة، لتخرج على الفور من الباب بكلّ هدوء، حتى إنها كانت تحاول جاهدة ألا تنظر بوجهي أو أن يلتقي نظرها بنظري.

بدأت أشعر بالغضب والتوتر.

أسأل نفسي لماذا تلك الممرضة البلهاء صامتة؟

رغم أنها بدت لي لطيفة لأول وهلة رأيتها بها.

على ما يبدو أنها لا تفهم ما أقولُ لها، لم تكن تتقن اللغة العربية، وأنها تتكلم اللغة الروسية، عندما سمعتها تتحدث إلى إحدى زميلاتها الممرضات، عند خروجها من باب الغرفة التي كنت محتجزة بها.

حتى الطبيب المعالج لي، الذي رأيته لأول مرة عند استيقاظي من الغيبوبة فقط مرة واحدة، أجاب عن سؤالي عندما سألته ما اسمه ومن أي بلد، أجابني بهمس وهو يخبرني بألا أكثر من الأسئلة وأبقى صامتة.

ردد لأكثر من مرة في حال بقيت صامتة، لا تثيري الشغب أو المشاكل، سيكون وضعك أفضل من ذلك بكثير ويحررون أقدامك من السلاسل.

لكن كنت فتاة فضولية ومتمردة طوال الوقت.

تارة من الألم، وتارة أخرى من احتجازي، بهذا المكان المجهول، الذي لا أعرف ما هو سبب تواجدي به أصلاً.

وأين باقي أفراد عائلتي؟

لماذا لا أرى أحداً يقوم بزيارتي؟

ومن ناحية أخرى لعدم معرفتي بأي ماضٍ لي.

في اليوم الثاني بعد أن استعدت الوعي، أو شيئاً من عافيتي وقد شعرت ببعض القوة والتحسن بدأت أنده بكلّ قوة على أحد بأن يأتي إليّ، لكي يخبرني بما يحدث معي أو يطلق سراحي من هذا السرير الحديدي.

كانت الممرضة صاحبة العينين الزرقاوين، تأتي مع إحدى مساعديها تنظر لي بقوة وغضب، تحقن إبرة دواء بالكيس المعلق بجانب سريري والموضوع بالوريد وترحل، وأنا على إثر تلك المادة الموجودة في المحلول الوريدي، أفقد الوعي وأنام إلى اليوم التالي.

اليوم الثالث عند استيقاظي من النوم، تذكرت كلام الدكتور مهند يخاطبني بهمس: إذا أبقيت حركاتك هادئة سيحررون أقدامك من السلاسل.

لذا قررت على الفور أن أحاول بكلّ استطاعتي، ألا أثير الشك أو الريبة من حولي في لحظتها، وأن استمع إلى كلام الدكتور مهند.

فكرت قليلاً، ونظري معلق بسقف الغرفة والعفن يملأ سقفها، لكي أستطيع أن أعلم أي شيء عن مكان وجودي في هذا المكان الموحش، يجب ألا أشعر أي أحد باستيقاظي كي أستكشف المكان الذي أقيم فيه.

تحركت قليلاً من مكان نومي، ثم جلست في منتصف السرير.

حاولت بكلّ هدوء أن أنزع السلاسل عن قدمي، دون أي جدوى من كلّ تلك المحاولات الفاشلة، كانت مُحكَمة الإغلاق، في النهاية لاحظت بأني أستطيع التحرك مع السلاسل لأنها طويلة، كسلاسل نمر معلق في قفص، أمسكت السلاسل بهدوء وحذر شديدين.

رغم الجهد الكبير والألم الشديد الذي كنت أشعر به، بأن أنزل بهما عن السرير، وأحاول أن أجر قدميّ بكلّ ثقلي. سرت واتجهت بهما بضعة أمتار قليلة في الغرفة نحو النافذة.

وقفت نحو الباب وأمسكت مقبضه، كان الباب مقفلاً من الخارج، الهدوء يخيم على المكان ولا يوجد أي صوت مما كنت أسمعه في الأيام الماضية حين استعادة وعي.

توجهتُ نحو النافذة في وسط الغرفة، نظرت من خلالها ذهلت من هول المنظر الجميل الخلاب الذي رأيته، اكتشفت بأنني موجودة في بناء شاهق، عالٍ على سطح سفح جبل يطل على وادي عميق، تحيط به أشجار الغابة الكثيفة.

حينها فقط أدركت بشكل قاطع أنني في ورطة كبيرة جداً وأن ذاكرتي الحمقاء لا تساعدني على تذكر أي شيء من حياتي الماضية ولا حتى على تذكر اسمي أو من قد أكون أولاً.

أقف بجانب النافذة المطلة على سفح جبل عالٍ والوادي العميق في أسفله، وأفكر كيف يمكنني أن أخرج منه.

دخلت الممرضة صاحبة العينين الزرقاوين الجاحظتين نظرت بلؤم عندما رأتني أقف بجانب النافذة.

حاولت في البداية بكلّ جهدها وبلطف شديد، أن تعيدني إلى سريري، وبلكنتها الروسية الغريبة، وهي تشير بالأدوات التي تمسكها بين يديها

بأنها ستقوم بتغيير الضماد على الجرح، لكن في حينها جاءت فكرة ساذجة على رأسي، علّ الأمور تنقلب رأساً على عقب لتغير شكل الواقع الذي بدا لي بأني حتى هذا الوقت بأمان.

فكرت بالهرب وأن أنتزع من الممرضة مفاتيح السلاسل المقفلة بقدمي بما أن باب الغرفة، كان مفتوحاً وغير مقفل.

حاولت الهرب رغم شدة الألم الذي أشعر به والطقس البارد والرياح القوية في الخارج، يبدو أننا في فصل الشتاء الذي ينذر بعاصفة ثلجية قويّة.

عندما رأت الممرضة أني أحاول أن أهرب ودار عراك شبه قوي بيني وبينها بدأت تصرخ وتنده بأعلى صوتها.

على إثر صراخ الممرضة واستنجادها لكي ينقذوها مني جاء عدد من الممرضين الذين تعمل معهم، وسحبوها إلى الخلف وهم يتحدثون معها بلغتهم ولكنة مختلفة لا أفهم ما يجري بينهم.

ثم دخل الدكتور مهند وأنا في أشد غضبي، شدني للخلف حيث كانت الممرضة على الأرض تشهق وهي في حالة نصف اختناق.

يصرخ بوجهي، هل أنت مجنونة؟ هل تريدين أن يقضوا عليك؟

جلستُ على السرير وأنا أبكي في حالة انهيار شديدة.

انحنيت نحو ركبتيه، والجرح الذي في أسفل خاصرتي ينزف، أقبل يديه وأتوسل إليه بأن يخرجني من المكان الذي أنا فيه، أو يخبرني أي شيء عن حقيقة أمري، على الأقل أن أعرف شخصيتي الحقيقية، من أكون وكيف

وصلت إلى هذه الحالة المزرية من الألم والحيرة في هذا المكان غير المعروف أو غير المألوف بالنسبة لي.

نهضت الممرضة وخرجت مسرعة من باب الغرفة، تتمتم ببضع كلمات روسية غير مفهومة، ثم عادت بعدما خرجت من باب الغرفة غاضبة مما حدث معها، جاءت مع رجلين ضخمين، مع أحدهما عدة مفاتيح، حرر قدمي من السلاسل وبدأ يجرني بقوة إلى خارج الغرفة، كنت أصرخ وأنظر بوجه الطبيب مهند كي يحررني منهم وأن يدعني وشأني.

ظل الطبيب مهند ثابتاً في مكانه، من دون أن يبدي أي حركة توقفهم عما يقومون به.

رغم كلّ مقاومتي، والصراخ والتوسلات لهم، لتركي وشأني لم تنفع توسلاتي في شيء.

****

أيام لن تنساها ذاكرتي

أذكر جيداً كيف اقتادني الرجل الضخم صاحب اللحية الكثيفة مع زميله عبر ممر طويل، حينها أصابني الدوار ولم أستطع أن أسير معهم ولا حتى بضع خطوات، ثم حملني أحدهم ونزل بي عبر درج قديم مظلم إلى أسفل البناء في غرفة مظلمة ومنعزلة تحت الأرض لا يوجد بها إنارة أو ضوء.

حتى أني لم أستطع أن أرى أصابع يديّ حيث كان الظلام الدامس يملأ المكان، وتفوح منه رائحة كريهة لا تطاق.

مكثت بذلك المكان عدة أيام لا أعرف كم مرّ على وجودي به، بينما كان يرمى لي الطعام من أسفل الباب ولا أرى ما يوجد في الصحن، إلّا حين أتلمسه أكتشف بوجود كسرة خبز يابسة أو قطعة جبن عفنة.

بعد عدة أيام على وجودي في مكان مظلم، لا أرى فيه أي شيء مما حولي، أو أن أرى أي نقطة ضوء في ظلمة حالكة، عدا عن كلّ ذلك، لا أستطيع أن أتحرك من مكاني ليس بسبب الظلمة فقط، بل بسبب الآلام المبرحة التي أشعر بها، والتقرحات التي بدأت تنتشر وتظهر حول الجرح في أسفل بطني وظهري، والحكة الشديدة التي كانت موجودة بجميع أنحاء جسدي.

كان كلّ شيء موجعاً حينها، بسبب البثور التي ظهرت محيط مكان العملية والتي بدأت تزداد كثيراً.

حينها شعرت بأني أصبت بالجرب، وبدأت هذه الحبوب والطفح الجلدي يزداد بشدة كل لحظة.

رغم كلّ ذلك كان أكثر الأمور إزعاجاً لي هو أنني لا أتذكر من أكون ولماذا يحدث هذا معي؟ وما هو الأمر الجلل الذي فعلته لأعاقب عليه بهذه الطريقة الوحشية من قبل أشخاص لا أعرفهم ولا أعلم من هم، كأنهم فضائيون جاؤوا من الخارج.

لم أكن أعلم أيضاً، كم يوماً قضيت في ذلك المكان الموحش المرعب.

طول مدة الاعتقال، لم أكن أعلم إذا كان الوقت ليلاً أو نهاراً.

فجأة في إحدى المرات، وبعد يقيني بأني ميتة لا محال ولا يمكن أن أنجو من هذا المستنقع القذر، سمعت صوت أحدهم يناده لأحدهم الآخر، يقول له أخرج السجين رقم ألف وتسعمئة وسبعين.

أجابه، حاضر يا سيدي.

ثم سمعت صوت أغلال السلاسل ومفاتيح تتحرك فتح الباب وانشق ضوء قوي أتى من الخارج، كأنه نور من النجوم المضاءة في السماء بعد ظلام ليالي حالكة الظلمة.

في تلك اللحظات، شعرت كأني مصابة بالعمى وأني أرى الحياة من جديد، بكلّ صعوبة استطعت أن أفتح عيني اليسرى، لأرى المكان الواسع الذي كنت معتقلة أو مسجونة به لعدة أيام.

لا أعرف كم مرّ عليّ من الوقت وأنا محتجزة به.

من شدة الظلمة والآلام التي كنت أشعر بها، عندما رمى بي إلى داخله، لم يكن بمقدوري أن أبتعد عن الباب ولو حتى بقليل أو نصف شبر واحد على الأقل.

بقيت ملاصقة للباب طوال فترة احتجازي، لأنه الشيء الوحيد الذي تعرفت إليه منذ بدء وصولي إليه.

في أثناء ذلك فتح الباب ليزيحني من خلفه فدخل أحدهم إلى مكان تواجدي هناك.

كان يتحدث إلى أحدهم وهو يخاطب المسؤول عن نقلي إلى مكان آخر.

كان كلّ الظن عندي بأنه سيتم إعادتي إلى الغرفة التي كنت فيها قبل أن يتم عقابي ورمي في هذا القبو المظلم.

كان يقول لي بلهجة عربية ثقيلة هيا انهضي، ستخرجين حالاً من هنا.

لم يستطع ذلك الرجل أن يلمسني أو يقترب مني، كأني حشرة أو أي نوع من أنواع القذارة المتعفنة.

بل بدأ بسحبي بقدميه ولا يريد أن يلمسني أو يقترب مني أصلاً ويدفعني أمامه بأخمص بندقيته.

في أثناء سحبي إلى الخارج بينما كان الرجل الآخر ذو اللحية الكثيفة يجرني كي أنهض من مكاني واصطحابي إلى مكان أخر مجهول بالنسبة لي، اتجه نظري إلى إحدى زوايا نهاية الغرفة التي كنت محتجزة فيها، تعلق نظري بإحدى زواياه، فمن هول ما رأيت أصابتني صدمة شديدة، شعرت بدوار يلف بذلك

المكان الذي كنت محتجزة به قسراً، حيث كنت أمكث لعدة أيام من دون أن أعلم أو أرى شيئاً منه سوى أني كنت أشعر بأني ميتة لا محال، رأيت شيئاً مخيفاً ومرعباً كاد أن يصيبني بالجنون والإغماء من جديد.

في إحدى زواياه كان يوجد هياكل عظمية مكدسة فوق بعضها البعض عندها أدركت بأني كنت أجلس بين الجثث المكومة، والأصوات التي كنت أسمعها طوال الوقت هي أصوات الجرذان التي تأكل وتنهش بالجثث الميتة، حتى البكاء والصراخ لم أكن أقوى عليه كنت منهكة، جسدي مثقل بالجراح والألم، حسبت نفسي منذ الوهلة الأولى التي رمي بي بذلك المكان القذر، بأني في عداد الموتى.

عندها أدركت كلياً بأنهم يتخلصون من الأشخاص بهذه الطريقة يتركون المعتقلين من دون طعام حتى تتعفن أمعاؤهم ويموتون جوعاً، في تلك اللحظات تمنيت لو كنت ميتة، ولم أرَ ذلك المنظر الرهيب المرعب.

كأني كنت أحلم بكابوس مخيف، وقد بدا لي في كلّ يوم أمر به أنه كابوس وحلم مرعب، لا أستطيع أن أستيقظ منه.

عند مدخل باب الاعتقال، يوجد كرسي مدولب، ومتحرك بعجلات، وضعوا غطاء على الأرض ثم رموني عليه وتم حملي بالغطاء.

ليتم وضعي على الكرسي المتحرك وجري إلى الخارج لإخراجي من ذلك القبو الموجود تحت الأرض، ثم تم رميّ على نقالة للمرضى في سيارة الإسعاف.

اقتادوني إلى مكان آخر، لاحظت عبر زجاج سيارة الإسعاف أننا في وسط الغابة كثيفة الأشجار.

الظلام الدامس يخيم على الغابة، والجو ماطر بغزارة، لا أعلم بأي اتجاه كان يقتادني هؤلاء الرجال.

ثم غبت عن الوعي ولم أشعر كم بقيت في الغيبوبة، إلا حينما استيقظت في غرفة كبيرة وواسعة، مزينة بالأثاث الفاخر والمرايا اللامعة، الستائر بيض مزركشة تدهش الروح والنظر.

كيف أستطيع أن أقارن بين ماكنت عليه وما آراه الآن، أو بين هذه الغرفة، وبين تلك التي كنت بها سابقاً تحت الأرض.

قد أكون ميتة وأنا الآن في الجنة بين الملائكة، كأن الأقدار تتلاعب بي مرة أخرى أو بين الحين والآخر.

ما هذا الذي يحدث معي الآن؟

مرة أرى نفسي مكبلة بالسلاسل الحديدية، كأني سجينة محكوم عليها بالإعدام، ومرة أخرى يضعونني في قبو بأسفل البناء، تحت الأرض بين الجثث المتعفنة والميتة.

بينما هذه المرة تختلف عن سابقتها بألف مرة، أرى نفسي في الجنة بين ستائر ناصعة البياض والجمال.

في غرفة فاخرة، لا أعلم أين أنا، كأن الأقدار تنتقل بي بين الحين والأخر ليتلاعب بي الماضي والحاضر معاً من دون علم مسبق، بين عتمة الماضي وأنوار الحاضر.

كلّ ذلك وذاكرتي الحمقاء تأبى أن تعيد لي شيئاً عن الماضي الذي كنت أعيشه.

فلا أستطيع أن أشعر بالفرح ولا السرور أو الأسى والحزن الشيء الوحيد الذي أستطيع الآن أن أفعله هو أن أرثي نفسي وحالي على ما أمر به!

بينما أنا في لحظات السكون بين الحلم واليقظة، أي بعد قليل من لحظات استيقاظي، دخلت امرأة في الخامسة والخمسين تقريباً من العمر، تحمل بيدها منديلاً أبيض مطرزاً باللون الفيروزي وتجر طاولة صغيرة يوجد عليها جميع أنواع الطعام من اللبن والبيض وقطع الجبن البيضاء وبجوارهم كوب من عصير البرتقال وأيضاً كوب من القهوة وفنجان من الشاي الأخضر، ثم أشارت لي بيدها كي أنهض وأتناول طعام الفطور أو بعضاً منه.

اتجهت تلك السيدة نحو النافذة وأزاحت الستائر عنها ليدخل منها ضوء الصباح مع أصوات زقزقة العصافير وتغريداتها الناعمة.

نظرت بوجهها وسألتها، كم الساعة الآن؟

أجابتني بكلّ هدوء إنها الساعة التاسعة والنصف صباحاً.

على الفور سألتني هل أساعدك في شيء أو في تناول طعامك.

باغتها بسؤال مستعجل عن سابقه؟

نهضتُ عن السرير بسرعة، رفعت الغطاء عني، ووقفت أمامها سائلة إياها بحيرة وتعجب.

أي يوم نحن وما تاريخ هذا اليوم؟

كم مرّ على نومي في هذا المكان؟

لأنني لا أشعر بأي ألم في جسدي، عما كنت أشعر به سابقاً.

نظرت بوجهي بعينيها الواسعتين الجميلتين، تخاطبني مستغربة.

إنه يوم الاثنين، الخامس والعشرين من شهر فبراير، عام ثلاثة عشر وألفين.

الآن عرفت كم هو الوقت والساعة واليوم والتاريخ وبأنه أيضاً هو يوم الاثنين حينها انتابني شعور جيد بالبهجة والفرح، وبأن اليوم هو يوم الاثنين.

قد يكون أي يوم من أيام الأسبوع عدا أن يكون يوم الجمعة سيكون هو الأفضل بالنسبة لي.

لا أعلم لماذا انتابني هذا الشعور على الرغم من عدم تمكني من تحديد أي تفصيل لحياتي السابقة أو القادمة.

قد يكون يوم الجمعة له طابع أو حدث معين أو سيئ بالنسبة لي، جعلني أرتاح حين علمت بأنه يوم الاثنين وليس هو يوم الجمعة.

لا أعلم لماذا شعرت بالارتياح ليوم الاثنين، قد يعود السبب بكرهي ليوم الجمعة بأنه يوم العطلة الأسبوعية، ويتوقف به كلّ شيء فيه عن الحركة، ويجعل المرء في حالة ركود أو كسل والشعور بأن عجلة الحياة في ذلك اليوم

بطيئة أو يتوقف الكون نهائياً عن الدوران، وهو بكلّ تأكيد عطلة لكلّ الدوائر الحكومية والمحلات التجارية والصناعية.

ثم سريعاً قلت لها.

ما اسم هذه المنطقة التي نحن بها الآن؟

ردت بابتسامة هادئة، فيها الكثير من علامات الاستغراب والاستفهام.

وهي ترد على سؤالي بتأنٍ وبطء.

إننا يا سيدتي الصغيرة، في مدينة نيقوسيا بجزيرة قبرص.

ضحكتُ بصوت ساخر وخافض، مرددة ببهجة مبطنة من حصولي على بعض المعلومات من هذه السيدة الأنيقة.

حسناً إذاً نحن في نيقوسيا في قبرص.

شعرت كأني بدأت أعي ما أنا به بعد عناء طويل.

هكذا بدا المشهد في حينها، إذاً نحن في مدينة نيقوسيا عاصمة قبرص، ونتكلم اللغة العربية مثل بعضنا بعضاً.

كيف يحدث هذا هنا؟

هل من توضيح لي لو سمحتِ سألتها بتنمر؟

وكيف وصلت أنا إلى هنا؟

ومن أتى بي إلى قبرص؟

ردت قائلة: لا أعلم يا آنسة تستطيعين أن تسألي السيد مروان عن كلّ ما تودين معرفته.

ردت بابتسامة هادئة.

خاطبتني بلطف شديد.

أجل يا آنسة أنا أتكلم اللغة العربية بشكل جيد جداً، لأني من أصول عربية وأبي وأمي من مدينة طرطوس في سورية، وقد جئت مع أهلي وباقي أفراد عائلتي، منذ قرابة الخمسة والعشرين عاماً، كمهاجرين إلى قبرص وما نزال نحافظ على لغتنا الأم، والعادات والتقاليد، والأصول العربية لأن أمي كانت تقول لنا بشكل مستمر، من ينسى عاداته وموروث أهله يبقى من التعساء في حياته تائهاً بلا اسم أو عنوان له.

ثم ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهي وأنا أقول لها، يا إلهي لا أصدق ما أنا به الآن، ماذا يحدث معي.

قلت لها حسناً إذاً.

هل أنت مقيمة هنا بهذا المنزل يا سيدتي؟

ردت تلك السيدة على سؤالي لها بكلّ هدوء، لا لقد جئت منذ يومين إلى هنا فقط، سأبدأ عملي معك في هذا القصر، فقد تم تعييني من قبل السيد مروان للاهتمام بك بشكل خاص، وأن أقوم بخدمتك وبكلّ ما تحتاجينه عندما تطلبين مني أي شيء.

صحيح يا آنسة تستطيعين أن تناديني باسم جانيت.

ثم طلبت تلك السيدة مني الاستئذان لكي تذهب لعملها، ولإحضار ثياب نظيفة لي لكي ارتديها بعد انتهائي من تناول طعام الفطور.

لا أعلم لماذا انتابني شعور بالبهجة والسرور والهدوء بآن واحد.
حتى أني سألت نفسي.
أين تلك الفتاة القوية المتمردة؟
قبيل عدة أيام من هذا الوقت التي تريد أن تكسر السلاسل الحديدية، لتنطلق نحو الحرية من دون أي قيود تمنعها عندما كنت بالمشفى.
أو تلك الفتاة المنهكة المتعبة التي تتمنى الموت في كلّ ثانية بذلك القبو أسفل المشفى بين الجثث والجرذان.
بينما كنت حينها أشعر بالراحة والأمان والجمال في هذا المكان الرائع، من حيث الغرفة الفاخرة ورؤية تلك السيدة التي تجلب الراحة النفسية والاطمئنان، على الرغم من خيوط الغموض التي تحيط بي وتخيم على أفكاري وذاكرتي.
فجأة شعرت بالجوع وبالنهم الشديد لتناول ما أراه أمامي.
اتجهت مباشرةً نحو طاولة الطعام، وقررت تناول كلّ الطعام الموجود أمامي على الطاولة كلّه.
مخاطبة نفسي بصوت مرتفع قليلاً.
يجب أن ألتهم كلّ هذا الطعام دفعة واحدة، لن أترك منه ولو قطعة صغيرة.
اقتربت من الطاولة وبدأت أتناوله بشراهة شديدة، كمن يتسابق مع أحدهم على إنهائه مرددة بالقول لنفسي سألتهمه دفعة واحدة قد يكون آخر مرة أراه، وأحرم منه مرة أخرى كما فعلوا بي سابقاً.

لقد أصبح لي خبرة في الحرمان من الطعام والصبر على الجوع، والنوم أيضاً بين الجثث المتعفنة والجرذان يا لسخرية القدر على ما يجري معي من أحداث غريبة.

أقول ذلك وأنا ألتهم بشراهة الطعام والشراب الموجود أمامي.

بعد مرور القليل من الوقت القصير عادت السيدة جانيت.

التي قالت إنها ستكون مساعدتي في تلبية كلّ ما أحتاجه إليه من طلبات.

كانت تمسك بيدها فستاناً قصيراً جداً لونه أحمر وردي، مطرزاً عند الصدر ومكشوفاً عند الظهر، يوجد به فتحة واسعة من الخلف لكنه من النوع الدانتيل الفاخر.

وتحمل معها أيضاً علبة حمراء اللون فيه عقد من الألماس.

خاطبتني بكلّ تواضع وهدوء، هذه الأشياء لك يا سيدتي.

لقد وصلت لك حالاً من المتجر.

سترتدين هذا الثوب الآن، بعد أن تأخذي حمامك الساخن، وسأساعدك أنا في تزيين وتسريح شعرك أيضاً.

قلت لها حسناً إذاً.

سأنده عليك حال أجهز بعد الاستحمام.

أين هو الحمام إذاً؟

استطردت السيدة قائلة لي: لكن هناك أمراً آخر.

عندما تنتهي من ترتيب نفسك، سيكون السيد مروان بانتظارك في مكتبه.

سألتها من هو السيد مروان؟

وأين سأجد هذا السيد؟

ارتسمت ابتسامة على وجهها، سيكون السيد مروان في مكتبه يا سيدتي، وسنذهب معاً أنا وأنت لا تقلقي من ذلك.

كلّ تلك اللحظات كنت أشعر بالسعادة كأني ولدت من جديد بعد كابوس مرعب مخيف، شعور بالقوة والفخر، العالم صغير أو كبير أمامي لم يعد يهم كأنني في الحلم، أو في عالم من الأوهام والخيال.

لم أكن أصدق ما يحدث معي من مفارقات بين يوم واليوم الآخر أو بين ليلة وضحاها، شعرت بأني أصبحت كالفراشة، سأطير من السعادة لما كان يحدث معي.

الشيء المبهر أني ما أزال على قيد الحياة.

بينما الشيء المستغرب بالنسبة لي لماذا لم أكن أشعر بالفضول لمعرفة هذا المكان الجديد الحالي بالتذمر أو القلق أو الهيجان.

الذي كنت أشعر به عندما كنت مقيدة في سرير المشفى بالسلاسل.

هل جمال المكان والخدمات التي قدمت لي، هو سبب هذا الشعور؟

أم أن هذا المكان هو منزل عائلتي، وأنا أقيم في بيت أمي وأبي؟

أم أنني لم أعد أكترث لما سيحدث معي بعد الآن؟

بعد تلك الأيام التي قضيتها في الحجز بالقبو بين الجثث المتعفنة، أصبح كلّ ما سيمر معي ليس بالشيء المهم.

أو بأنه يجب عليّ أن أعيش اللحظات القادمة بكلّ ما فيها من متعة حقيقية قادمة نحوي.

الحياة أصبحت بالنسبة لي قصيرة جداً وبائسة في ذات الوقت، في أي لحظة قد تنقلب عليّ وتتغير جميع مجرياتها دون سابق إنذار أو تنبؤ بما سيحدث لاحقاً، قد تنتهي حياتي بأي لحظة من دون سابق إنذار، أو قد ينتهي بي العمر دون أن أشعر بمرور الوقت أو الزمن.

لذلك يجب عليّ أن استغل كلّ دقيقة حياة لي خوفاً من أن أخسرها من جديد، وشعوري أيضاً بأن هناك أشياء مغيبة عني لا أعرفها، بعدما اختبرت الموت البطيء، في تلك الأثناء لم أعد أكترث لتلك الذاكرة الحمقاء، بأن تعيد لي الماضي الذي كنت أعيشه قبيل الأيام القليلة الماضية، ثم قررت أن أتوجه إلى الحمام، وأخرج من الغرفة لأرى ما ينتظرني.

كان في غرفة النوم بالجهة المقابلة للسرير باب من الخشب اللامع، سرت باتجاهه ثم دخلت إليه، وجدته بأنه مكان للاستحمام.

ذهلت من هول ما رأيت، كان المنظر الفاخر تشهق له الأنفاس، واتساع المكان يدعو للذهول، كأنه صالة استقبال وليس مكاناً للاستحمام فقط، كلّ شيء مرتب ونظيف بشكل جميل وأنيق.

اقتربت نحو حوض الاستحمام، ذي اللون الفيروزي المزين بعروق ذهبية لامعة، يوجد بجوار حوض الاستحمام، خزانة من الصدف المنقوش باللون

الفيروزي، موضوع عليها زجاج من النبيذ الأحمر المعتق، أمسكت الزجاجة مكتوب تاريخ التعتيق منذ عام ثمانمائة وتسعة وتسعين وألف.

ومناديل ومناشف من ذات اللون الفيروزي.

كلّ شيء حولي يبرق ويلمع بلون البحر والذهب.

خلعت ثوب النوم الذي كنت أرتديه ولم أعلم أيضاً كيف ارتديته.

وقفت أمام المرآة أتأمل وجهي وجسدي.

لم أرَ أي بثور مما كنت أشعر أنها تملأ جسدي ولكن رأيت مكان الجرح الموجود في أسفل خاصرتي.

سرحت قليلاً بنفسي أمام المرآة، وكأن شيئاً ما بداخلي يلح عليّ ليذكرني بالبحث عن الماضي الغابر بكلّ إصرار.

يجب أن أعرف ماذا حدث لي قبل تاريخ استيقاظي بالمشفى.

من هو وراء كلّ ما يحدث معي الآن؟

كيف كانت حياتي الماضية؟

ما هو السر من وصولي إلى هذا المكان الغريب أيضاً؟

كلّ تلك الأسئلة المتكررة تلح بقوة كي أعرف الحقيقة ولن أستسلم لأي مغريات مهما كانت.

ملأت الحوض بالمياه، وجلست فيه أستمتع بالماء الدافئ.

ثم تذكرت بأنه يجب أن أنتهي من الاستحمام سريعاً، لدي موعد للقاء بالسيد مروان.

خرجت من حوض الاستحمام، وأنا كلّي رغبة بالبقاء به طوال اليوم.
المياه الدافئة ورائحة الصابون العطرة، واللون الفيروزي الهادئ الذي يشعرك بالاسترخاء.
و لكي أزيل أيضاً الأوساخ، التي كانت عالقة بجسدي طوال المدة الزمنية التي قضيتها بالحجز، كان شعور الانتعاش والرغبة في البقاء فيه لا يقاوم.
تذكرت بأن السيد مروان بانتظاري ويجب أن أنتهي من الاستحمام وأن أرى وجه الرجل الذي قدم لي كلّ هذا الإقامة الفارهة.
تناولت بيدي منشفة فيروزية نظيفة، بجانب حوض الاستحمام ووضعتها على جسدي، ومشيت نحو غرفة النوم، لأجد عند خروجي من باب الحمام، بانتظاري السيدة جانيت تقف بجانب السرير، تحمل بيدها الفستان الأحمر الوردي الذي أحضرته لي قبل قليل.
وهي تشير بأن أسرع في ارتدائه، مع حذاء كعبه عال من اللون نفسه.
لا أعلم لماذا شعرت بالخجل، عندما ارتديت ذلك الثوب الأحمر.
كان مكشوفاً عند الصدر والظهر ويكشف كامل ساقي من الأسفل، ليظهر مفاتن جسدي بالكامل.
قد أكون من عائلة محافظة، تمنع على فتياتها كشف أجسادهم أمام الغرباء.
عندما رأيت نفسي في المرآة، شعرت بالخجل الشديد كأني عارية رغم جمال الثوب على جسدي، وإظهار مفاتني بشكل جميل وأنيق.

على الفور اتجهت نحو خزانة الثياب، أبحث عن ثوب آخر أرتديه ليكون أكثر طولاً وحشمة، يستر القليل من ساقيّ على الأقل.

وجدت خزانة الملابس فارغة، لا يوجد بها سوى ثياب داخلية للنوم، وجميعها جديدة وغير مستعملة سابقاً.

كانت السيدة جانيت تردد على مسامعي عند مساعدتها لي في ارتداء العقد الذي أحضرته مع الفستان، قائلة: عنقك طويل وجميل يا آنسة، ستثيرين شهوة كلّ الرجال في قبرص، بجمال قوامك وبياض بشرتك ولون شعرك الأسود.

تمتلكين مفاتن ومواصفات، ملكات الجمال يا سيدتي الصغيرة.

أثار كلامها إعجابي، ضحكت من جديد، حركت كلماتها الجميلة مشاعري، فأنا لم أسمع أحد يصفني ويمتدحني منذ أن استيقظت لأول مرة في المشفى إلى لحظة الذي تحدثت مع أحدهم من جديد.

نظرت للسيدة جانيت وطلبت منها أن تأخذني إلى مكتب السيد مروان.

هزت برأسها ثم مشت السيدة جانيت أمامي بكلّ هدوء، كنت أسير خلفها كأني طفلة صغيرة تائهة.

توجهنا للخروج من باب الغرفة، لأجد أمامي وخلفي ممراً عريضاً، على جانبيه عدة غرف، جميع أبوابه مقفلة.

سألتها أين غرفة نومها، أشارت إلى غرفة بجانب غرفتي نظرت إلى داخل الغرفة، رأيتها تفوق بالجمال الغرفة التي كنت بها.

ثم اتجهنا أنا والسيدة جانيت، للقاء بالسيد مروان، وكلّي فضول لمعرفة كلّ شيء بتلك اللحظة.

كنت مرتبكة جداً، يتملكني الكثير من الحماس والفضول للقاء بصاحب هذا المكان الجميل، وأيضاً الفضول كاد يقتلني كي أعرف حقيقة ما قد جرى معي سابقاً.

من أنا؟

ولماذا لا أستطيع أن أتعرف إلى حياتي الماضية؟

في حينها شعرت، أن الوقت يمر ببطء شديد والزمن سيتوقف عن الدوران، وأني أمشي بخطوات ثقيلة، لا يمكنني الوصول إلى المكان الذاهبة إليه للقاء مع السيد مروان.

بتلك اللحظة كلّ ما كنت أفكر به، من هو السيد مروان؟

هل إذا رأيت وجه السيد مروان سأستعيد ذاكرتي الخائنة؟

وماذا يريد من فتاة مثلي؟

صحيح كم أبلغ أنا من العمر الحقيقي؟

هل كنت في المدرسة أم في الجامعة، أو أنني لا أعلم القراءة والكتابة ولست متعلمة.

لماذا كلّ هذه الأحداث التي مرت معي أنا بالذات؟

أسئلة متكررة وكثيرة تتوافد على مخيلتي.

تطرق أبواب أفكاري، بينما أنا في طريقي للقاء بالسيد مروان.

لا أعلم، لماذا أشعر بأن حقيقة أمري، ومفتاح لغز حياتي الماضية، يوجد بيد هذا الشخص بالذات.

هل لأنه الوحيد الذي انتشلني من الموت؟

أو لأني في أشد الحاجة إلى أن أعرف من أكون؟

ثم سألت السيدة جانيت.

هل أنت متزوجة أم عزباء؟

قالت لي: إنها منفصلة عن زوجها منذ عشر سنوات.

هل عندك أولاد يا سيدة جانيت؟

لا أعلم لم حلقت بنظرها، نحو أعلى سقف الصالة، وغصة خانقة في سقف حلقها، مرددة بهمس خافض لا لم أرزق بأطفال.

قلت لها حسنا إذاً ما علينا من كلّ ذلك الحديث، دعينا نرى السيد مروان وما يريده مني.

كان كلّ المقصود من أسئلتي للسيدة جانيت بأن أخفف من شدة توتري وخوفي من الذي سأراه.

عند وصولي إلى باب غرفة المكتب، الذي يوجد به السيد مروان.

طلبت من السيدة جانيت المرافقة لي، بأن تحضر لي كأساً من الماء.

لأن قدميّ أصبحتا ترتجفان ويداي ترتعشان، شعرت بالتوتر والارتباك من حقيقة اللقاء بشخص أجهل من يكون، وأيضاً بالضعف وأني لا أقوى على مواجهة أي أحد في الوقت الحاضر، فأنا الآن في أضعف حالاتي.

كان يوجد كرسي متحرك، في وسط الفسحة قبيل وصولنا إلى غرفة المكتب بجانب الطاولة.

جلست على الكرسي، بينما جاءت السيدة جانيت بكأس الماء.

كنت في حينها أستجمع بعض الشيء من القوة، والأمر الأكثر خذلاناً بتلك اللحظة والتي تعصف بذاكرة المرء، هو أنك لا تتذكر أي أحد من الأشخاص المقربين لك، كي تقوي عزيمة إرادتك أو تشحن العزيمة لنفسك بأن تقول: سأعمل هذا الأمر من أجل فلان أو علان، أو أني أستطيع أن أواجه أحداً من أجل أبي أو أمي أو ولدي أو ابنتي أو مستقبلي القادم أو من أجل أي موقف ما أكمل به حياتي القادمة.

كنت في حينها في قمة اللامبالاة والاستهزاء من كلّ يوم أو لحظة ستمر معي، أصبحت أسيرة المفاجآت الغامضة بعدما رأيت ما مر معي خلال الأيام القليلة الماضية.

رغم كلّ ذلك تمالكت نفسي من جديد، ثم دخلت إلى مكتب السيد مروان للقاء به، ومعرفة حقيقة الأمر بكلّ ما جرى معي وما تعرضت له من أحداث مريبة.

أو بالأخص من لحظة استيقاظي في المشفى، إلى لحظة احتجازي القسري في قبو المشفى بين الجثث.

ما هي الغاية من كلّ تلك الأحداث غير المبررة لتحدث معي أنا بالذات؟

من وراء تلك الأفعال؟

ما هو الهدف من ذلك؟

حضرتني صورته التي رسمتها له في مخيلتي، حين علمت باللقاء به، حينما انتهيت من الاستحمام بأنه شاب وسيم حصيف، يشع ذكاءً وفطنة، يجلس على كرسي هزاز يدور في مكتب فخم وضخم.

حيطان مكتبه مطرزة باللوحات، والتحف، وشهادته الورقية الكثيفة، ونجف الكريستال يتدلى من السقف، والأريكة الخضراء ذات الوبرة الناعمة المنقوشة، وزهرية الورد موزعة في المكان، بطريقة رائعة لا تخلو من ذوق فنان مرهف الحس، وجواله لا يكف عن الرنين، والمكيف يعمل على تلطيف الجو.

بداخلي شعور بالفخر والاعتزاز، والغبطة حين رأيت مكتبا ضخما وفخما بكلّ معاني الكلمات الأنيقة والجميلة.

يجلس خلفه رجل في نهاية الخمسينيات من العمر.

يرتدي بدلة زرقاء فاخرة، يضع السجار الفاخر بين أصابع يده اليسرى، كأنه نجم من نجوم هوليود.

والذي لفت نظري أكثر ليس الساعة الرقمية السويسرية الراقية في معصمه الأيمن، إنما حجر الخاتم المنقوش باللون الفيروزي وبداخل الحجر محفور عيني أفعى على شكل كوبرا.

قلت بيني وبين نفسي، كأنني ما أزال في حوض الاستحمام الفيروزي.

ما قصة هذا الرجل مع هذا اللون الفيروزي غير العادي، في كلّ مكان من هذا القصر الكبير الراقي.

السيد مروان ليس طويل القامة ولا قصيراً، نحيل الجسد، يميل لونه إلى الحنطي الشرقي، كأن أصوله ليست سورية، وليس من سكان مدينة دمشق القديمة.

عندما رآني السيد مروان أدخل من باب مكتبه نهض من مكانه واستدار من خلف مكتبه، متجهاً نحوي بهدوء، اقترب مني ثم انحنى قليلاً ليقبل يدي، كأي مقطع استعراض في فيلم فرنسي قديم.

ثم رجع بضع خطوات قليلة للخلف، وطلب مني أن أجلس إلى كنبة كبيرة، ضخمة بنية اللون، في وسط مكتبه تطل على حديقة القصر وأيضاً تستطيع أن ترى البحر الأبيض من بعيد، خلف التلال القريبة من القصر.

الشيء الأكثر استغراباً من كلّ ذلك، ليس في طريقة ترحيبه الأنيقة لي، بل أني سمعته يلقي عليّ اسمي لأول مرة منذ لحظة استيقاظي في المشفى، إلى لحظة وصولي إلى هذا القصر الكبير الغريب بعض الشيء، وبأنه ينده لي إنجي.

يعني أنا الآن أصبح لي اسم ينادي لي به ألا وهو باسم إنجي.

أيضاً زادت معلوماتي قليلاً، لقد تعرفت إلى تاريخ هذا اليوم والوقت والسنة.

نظرت للأعلى وقلت يا إلهي، ما هذا اليوم الجميل الرائع غير المتوقع، كأنني أعيش الحلم من جديد.

نده على إحدى الخادمات وطلب منها إحضار فنجانين من القهوة، ثم عاود يسألني هل كلّ شيء يروق لك في قصر الضيافة يا إنجي.

هززت برأسي وأجبته: باستغراب بأن كلّ شيء جميل، لكنه خيالي في الوصف واللون الفيروزي يميز كلّ شيء فيه.

نهض من مكانه واقترب من الطاولة التي أمامي، سحب علبة خشبية بيده اليسرى، كان يوجد بها لفائف صغيرة من التبغ وولاعة ذهبية، تناول إحداها وهو يقلبها بين أصابعه يبدو أن الرجل أيسر، يستخدم كلّ شيء بيده اليسرى.

سألني هل ترغبين بالتدخين؟

على الفور أجبته بالرفض، وبأني لا أدخن.

هز برأسه مبتسماً حسناً إذاً كما تريدين.

وأعاد اللفافة إلى علبة التبغ.

نهض من مكانه وهو يحمل سيجاره الكوبي الفاخر بيده اليمنى وفنجان القهوة بيده اليسرى مبتسماً.

واقفاً عند حافة النافذة التي تطل على حديقة قصره.

أرأيت يا إنجي هذا البيت الكبير، لا أحد يسكنه غيري منذ زمن ليس بالبعيد كنت أتمنى أن أعيش هذه الحياة مع أسرة كبيرة، يجمعهم الحبّ

والتفاهم، ولكن الحياة قاسية لا تعطينا إلا الأشياء الصغيرة والقليلة ليبقى نظرنا معلقاً بالأمل البعيد ويمرّ بنا العمر الضائع ونحن على أمل أن نحقق الشيء القليل الذي حلمنا به لأول مرة تأملناه، دائماً تهزم أحلامنا وتتساقط كأوراق الشجر في فصل الخريف.

ثم استطرد كلامه باسماً، لا يوجد في هذا القصر سوى عدد قليل من الخدم. والآن أنت يا صغيرتي ستكونين سيدة هذا المكان.

من أصعب أنواع الغربة، أن يتغرب المرء داخل نفسه يبحث عنها فلا يجدها. قد تكون تلك الروح ماتت، ووارتها عتمة الحياة بقسوتها أو قد تعود تلك الروح مع بصيص أمل صغير يأتي بعد نفق مظلم.

ربما نكون على سفر إلى عالم مجهول الخطى والدروب لتعود بنا الحياة يوماً ما تحمل معها ذكريات غربتها.

ما أصعب أن يكون الشخص تائهاً يا إنجي بين حلم لا يكتمل رغم ما نُعاني لأجل تحقيقه في ظل واقع لا يحتمل.

ثم صمت السيد مروان وساد هدوء حذر، يبدو أنه كان ينتظر أن أبدي أي اهتمام أو كلام لما جرى من حديث بيننا.

بقيت صامتة في ذلك الوقت، أسمع الكلام الذي يصدر من السيد مروان.

أحاول جاهدةً، بكلّ هدوء وصبر أن أتمالك نفسي لإعادة صياغة كلامه في عقلي منذ بداية حديثه، أو بينما أربط جميع الأحداث التي مررتُ بها خلال الفترة الماضية مع الوقائع التي يخبرني بها في تلك اللحظات، أو التي

ستجري معي لاحقاً، أو خلال فترة السجن الذي قضيتها في قبو ذلك المكان المرعب.

تعلمت أن الصبر والتحكم بمقود الأمور هي من يقودك إلى حل مفتاح اللغز، وأن مراوغة الأعداء تحتاج إلى خطة محكمة لكشف الحقائق التي تختبئ وراءهم، بينما أدركت في أثناء حديثه، أن كلّ ذلك الفهم لواقع ما يمر بي من اختبارات صعبة، سيتطلب مني الكثير من الحنكة والدهاء بالعلم والمعرفة والوقت لأعلم ما سيحدث معي لاحقاً..

لأني شعرت بأن عين السيد مروان لا تنبئ لي بالمصداقية الكاملة في كلامه أو مشاعره المبطنة أو بأفعاله الخيرية من دون أي مقابل، أو ثمن لهذه الضيافة والحفاوة بالترحيب.

وراء كلام السيد مروان قصص كثيرة يجب عليّ معرفتها بنفسي وبالوقت المناسب لن أستعجل أو أستبق الأمور بينما أحصل على كلّ ما أريده منه من معلومات تفيدني في الأيام القادمة.

بدأ السيد مروان يحدثني عن تاريخ هذا القصر، وكم عمره ومن بناه، وكيف استطاع أن يشتريه من أحد مالكيه ضمن مزاد علني كان يعرض لأول مرة للبيع، وإن مالكه الحقيقي فارق الحياة، عن عمر خمسة وسبعين عاماً، حينها بدأت مشاكل أبناء العائلة القريبة من ذلك السيد المتوفى مالك القصر الحقيقي الذي بناه جده في القرن الماضي، وكيف تمت عملية حصر الإرث بين أفراد عائلته بعد وفاته.

وتسبب تقسيم الإرث بين العائلة الواحدة إلى حصول السيد مروان عليه برقم خيالي جداً.

ثم قال لي: اسمعي يا إنجي بكلّ كبرياء، اعتبري هذا المكان ملكاً لك، وتصرفي به كما تريدين، ولا أريدك أن تشعري يوماً من الأيام، بأنك غريبة عنه فهو من هذه اللحظة ملكٌ لك.

نظرت إليه بذهول، ثم نهضت من مكاني، ووقفت أمام مكتبه، ثم سألته.

ما مقابل ذلك العرض المغري جداً؟

أجابني مبتسماً وهو يقترب مني ثم أمسك بيدي، وأجلسني بجانبه على الكنبة مبتسماً، لا أريد منك أي مقابل يا إنجي.

فقط أريد أن تكوني بخير وتشعري بالأمان والسلام في حياتك القادمة واعتبريني والدك أو الأخ الأكبر.

لا يهم ما هي الصفة التي ستكون بيننا، المهم أن تكون أمورنا بخير، ولا أطلب منك المزيد.

أنسيت أنك أنت وأنا من أسرة واحدة.

فأنت يا إنجي، من إحدى أقربائي المقربين جداً، أنسيتِ ذلك.

أجبته: بذهول لا، لا أعرف ذلك.

فأنا لا أذكر أي شيء عن حياتي السابقة، وأحاول في كلّ لحظة، أن أتذكر ما كنت عليه قبل أن أجد نفسي في المشفى، ثم في وضعي بين الأموات، لكن ذاكرتي، لا تسعفني بأي حدث قد أستفيد منه لاحقاً.

ثم نظرت بعينيه مستغربة.

كيف لي أن أعلم بأننا أقرباء؟

في حينها شعرت بالغضب الشديد، وكدت في لحظتها أن تخرج أعصابي وانفعالي عن السيطرة، ثم تذكرت بأنه يجب أن أبقى هادئة، وتذكرت كلام الدكتور مهند في المشفى حين أخبرني إذا بقيت هادئة وصامتة ستعرفين كلّ شيء لاحقاً.

عدت إلى حديثه وأنا أبتسم له.

إذا نحن حقاً أقرباء؟

لماذا تركتهم يعتقلونني، ثم يحتجزونني في مكان قذر تحت الأرض بين الجثث والجرذان؟

أتعلم كم آلمني ذلك الوقت العصيب الذي مررت به؟

اقترب مني أكثر، ووضع يده على كتفي مخاطباً إياي بكلّ هدوء.

أريدك أن تهدئي قليلاً يا إنجي، بأن تركزي جيداً بالكلام الذي سأقوله لك الآن، دون أي انفعال أو عصبية منك.

أنا أعلم جيداً بأنك مررت بأوقات عصيبة مؤلمة، لكن الآن يا عزيزتي الصغيرة، أريد أن أطلب منك أمراً واحداً فقط، بأن تنسي كلّ ما مرّ معك سابقاً، ليصبح من الماضي، حاولي قدر الإمكان يا ابنتي أن تنسي ما حصل معك ولا تعيريه أي اهتمام أو أن يمر لحظة واحدة في بالك أو خيالك.

حدق في عيني، بعطف وحنان بشكل مباشر.

اصغي جيداً يا إنجي، أنت الأن أمام حياة جديدة وفرصة لا تعوض بثمن، فكري بالمستقبل فقط وليس غير ذلك والأهم مما مررت به من صعاب، إنك بخير وفي صحة جيدة.

أنت فتاة شابة جميلة، وما تزالين صغيرة في مقتبل العمر ثم أكمل باقي قصته.

أمسك بكلا كفيه يدي، وهو يجلس أمامي على الكنبة، وما زال نظره معلق بعينيّ.

لقد تعرضت عائلتك منذ مدة قصيرة، لحادث سيارة مروع مما أدى الى وفاتهم جميعاً وأنت كنت معهم.

تسبب الحادث الخطير، في فقدان ذاكرتك.

هذا أول شيء حدث معك، لأن الحادث كان مروعاً و احترقت جميع الأوراق التي كانت بالسيارة، و لم يعرف هوية الأشخاص الموجودين بداخلها، تم دفنهم و انتقلت على الفور إلى المشفى وتم إجراء عدة عمليات لك، و لأنك قوية وتمتلكين الكثير من الصلابة، استطعت مقاومة الموت وها أنت الآن ما تزالين على قيد الحياة، استمتعي بها من جديد لقد كتب لك العلي القدير حياة جديدة، و أنا هنا معك لكي أساعدك لتعيشي هذه الحياة السعيدة.

عندك عزيمة وإرادة قوية للعيش، رغم الإصابات الخطيرة التي تعرضت لها، ومقاومتك للمرض، من أجل ذلك تمت نجاتك بأعجوبة من كلّ الإصابات البليغة.

بينما تلك الممرضة المختلة عقلياً، حاولت التخلص منك ووضعتك في القبو، والآن تم القبض عليها وقد رحلت إلى بلدها في بيلاروسيا.

كان في داخلي شيء من عدم القبول، لما كان يقوله السيد مروان، بأن جميع ما رواه لي من قصص عن ذلك الحادث المؤلم، وكلامه عن الممرضة المختلة، فيه الكثير من التناقضات، والتفاصيل غير الواضحة أو المفهومة، لعدم ربط أي تفصيل مما ورد ببعضه الآخر.

على الرغم من كلّ ما كان يتحدث به بقيت صامتة، لا رغبة لي بالقبول أو الرفض، شعرت بأن عقلي وإحساسي متوقفان لا يعملان معاً مطلقاً، ولكن رسمت على وجهي ابتسامة ناعمة توحي له بالقبول والرضا، وهو يحاول بكلّ جهد أن يتابع حديثه غير المقنع وتلك القصة المفبركة.

بدا لي واضحاً كوضوح الشمس، بأنه يخفي خلف قصصه أمراً كارثياً وكبيراً، وفي تلك اللحظة خانته بعض العبارات والإشارات التي أظهرته بالرجل المخادع والمنافق، لا يتقن دور التمثيل أو الكذب.

لا أعلم من ركب له هذا الدور الفاشل، أو أنه أسلوب ذكي يحاول إظهاره أمامي لأصدق بأنه صادق معي، وأنه إنسان طيب وصاحب أخلاق حميدة وعالية.

بالمقابل فضلت الهدوء، خاطبت نفسي بحسنا إذاً: كما يريد السيد مروان سألعب معهُ اللعبة ذاتها، التي يلعبها معي، ريثما يحين الوقت المناسب،

لإظهار القصة الحقيقية، من كلّ ما جرى معي، وما سيجري حالياً، ولاحقاً أيضاً.

وهناك أمر هام زاد من هدوئي بالاطمئنان لما يدور حولي من أحداث.

بما أن السيد مروان، أصر على اعتبار وجودي في قصره كابنته أو أخته، وليس لديه أي غايات شريرة أخرى، أو قد يؤذيني بها، أو ليس لديه من ناحية ثانية نزوات جنسية تجاه ما يجري، لماذا أرفض هذه النعمة التي حلت عليّ، بين ليلة وضحاها، لذلك لا يمكنني رفض هكذا وضع مهما كانت شروطه فقبلت بالعرض المقدم لي من قبله بأن أكون معه في قصره وأعتبر كلّ ما مرّ معي شيئاً سيئاً وسيزول بزوال الأيام، كان هذا وعداً لي أعده بيني وبين نفسي.

ثم قال لي: الآن يا عزيزتي انجي أنت تمتلكين هذا المكان.

فأنا ليس لدي أقرباء، أو أي أحد في هذا العالم سوى أنت. فأنت الوريثة الوحيدة لي بعد هذا العمر الطويل.

جحظت عيناي أمامي، ولم أعد أستطيع الاستيعاب بشكل نهائي، نهض السيد مروان من مكانه، واتجه نحو مكتبه.

أحضر لي بعض الأوراق الذي تدل على أننا من عائلة واحدة وذات القربة بين عائلته حسن وعائلة عيسى في دمشق.

كان السيد مروان، من مواليد مدينة دمشق، تولد عام ثمان وخمسون وتسعمئة وألف.

أما السيدة جانيت، كانت تولد مدينة دمشق أيضاً، ولكن تصغر السيد مروان بعامين فقط.

ابتسمت له وأنا أقلب بين الأوراق الثبوتية، لم أكن أصدق أن لي اسماً وكنية وعائلة، ولأول مرة منذ استيقاظي في المشفى إلى تاريخ هذا اليوم الذي أمسكت به تلك الأوراق، أو لمست بيدي أي دليل يثبت شخصيتي الحقيقية.

فرحت بشدة في داخلي، كانت مسامعي لا تصدق ما أسمع.

الآن أصبح لدي اسم وعائلة وكنية من جديد، رغم الخبر المأساوي الذي سمعته عن وفاة أمي وأبي.

بينما كنت أقلب بين الأوراق، كان عقلي يحدثني في ذلك الوقت ألا أثير الشك والريبة عند السيد مروان، وأن أقبل بأي عرض يقدمه لي مهما كان ثمنه رخيصاً أو باهض الثمن، ولم أعد أهتم لأي شيء آخر بما أني ما أزال على قيد الحياة وأتنفس، باقي ما أريد معرفته، لم يعد مهماً بالوقت الراهن، أو بالشكل الصحيح أو المطلوب في الوقت الحاضر، هذا القرار أو الاختيار الوحيد الحاضر في مخيلتي حينها، بينما أستعيد حياتي الماضية التي كنت أعيشها سابقاً.

يجب أن أقبل بالأمر الواقع المفروض، مهما كان الأمر فلا مفرّ لي من ذلك الخيار، في ذلك الوقت، فأنا في تلك الحالة أراهن على الوقت، وعلى ذاكرتي الحمقاء الخائنة.

لأن الوضع الحالي الذي كنت به في تلك الأوقات، لا يسمح لي بأي نقاش أو اعتراض.

ما كان عليّ فعله بتلك الأيام، سوى الصمت والترقب لما يخبئه لي القدر، في جميع الحالات كان أفضل بمئة مرة من جلوسي بين الجثث المتعفنة والأموات.

خلال مداخلة السيد مروان، بقيت أردد بيني وبين نفسي، كي لا أظهر أي انفعال، يقلب الطاولة أو الموازين، بما كان يتحدث به معي، كنت أردد في داخلي بأن هذا الوضع أفضل بألف مرة من الجلوس في القبو الحمد لله على روعة ما أنا عليه الآن.

وعدا عن كلّ ذلك، كنت أعد نفسي بكشف الحقيقة، سيأتي الوقت المناسب وسأرى ما أستطيع عمله في الأيام القادمة، بما أني أجلس في مكان جميل مريح، فيه جميع أنواع الرفاهية التي يتمناها أي إنسان في هذه الحياة الصعبة.

نظرت نحو النافذة رأيت عصفوراً يقف على حافتها، زادت رؤية ذلك العصفور الطائر الثقة بنفسي، والقرار الذي اتخذته في المراوغة لمعرفة الحقيقة في نهاية ذلك النفق المظلم، الذي وضعني القدر به.

وأيضاً رؤية ذلك العصفور وهو يفر مغادراً تلك النافذة أعطاني دافعاً للصمود ورمزاً للحرية، مهما كان السبب الرئيسي وراء ما حدث معي.

لكن الآن ما عليّ فعله هو أن أرى ما سيجري معي في الأيام القليلة القادمة ثم أقرر ما سأفعله.

بدا لي في تلك اللحظات أنني أراهن على الوقت لكشف حقيقة أمري وما يحدث معي فكلّ يوم وكلّ لحظة، تمر معي تخبئ لي مفاجآت غير متوقعة.

نهض السيد مروان من مكانه وأخذ الأوراق التي تثبت نسبة القرابة بيننا، ثم وضعها في خزانة المكتب، موجهاً باقي حديثه لي وهو يبتسم ابتسامة رقيقة.

هل تريدين أو ترغبين يا إنجي بالتنزه خارجاً؟

أو أن نتجول معاً في العاصمة ونتناول طعام الغداء معاً في أجمل مطاعم قبرص، أنت الآن يا صغيرتي في ضيافتي.

ما عليك الآن هو أن تقبلي دعوتي على الغداء خارج البيت، دون أي تردد، سترين الآن الجزيرة، ومناظرها الخلابة المطلة على البحر.

هززت برأسي وأومأت له بالقبول، خرجنا معاً، صعد إلى سيارته الحمراء من نوع "فيراري كاديلاك"، جلست على المقعد بجواره وقلبي يرتعش، لا أعلم لماذا كان قلبي يخفق بسرعة.

هل من جمال الأشياء التي أراها وأتعرف إليها من جديد؟

أو لأني خرجت من الموت إلى الحياة؟

وهو يقود سيارته، قال لي ضاحكاً، لا تقلقي أحضرت لك سيارة حديثة وجميلة، بعد يومين يا صغيرتي ستصلك من المرفأ.

لم يكن لدي سوى الابتسامة الذي ظهرت على وجهي منذ استيقاظي في الصباح إلى هذا الوقت.

عندما دخلنا من باب المطعم كان الجميع، ينظر لي بابتسامة هادئة.

يلقون السلام والتحية على السيد مروان.

اتجه برأسه نحوي وهو ينظر بالخدم الموجودين في المطعم والزبائن على الطاولات ويقول لي: بكلّ فخر اطلبي، أي شيء تريدينه يا إنجي الجميع هنا تحت تصرفك، هم في أتم الاستعداد لخدمتنا، لا تترددي في طلب أي شيء ترينه أو ترغبينه.

بقيت صامتة، فقط أنظر بعينيّ.

أهز برأسي بالقبول على أي كلام يحدثني به أو يطلبه مني،

حيثُ استقبلنا الموظفون بكلّ حفاوة.

كان المطعم من النوع الإسباني التقليدي الفاخر على الطراز الحديث.

يقدم الوجبات والمأكولات الغربية والبحرية على الطريقة الإسبانية.

كلّ ذلك الوقت، كان السيد مروان هو وحده يتكلم وأنا فقط أصغي له، وأتعرف إلى الأماكن التي كان يأخذني إليها طوال اليوم.

عند عودتنا إلى البيت في تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً، كانت موظفة الخدم في استقبالنا، تدعى ماري من بولندا، طويلة القامة وصحتها ممتلئة بعض الشيء وعيناها زرقاوان تكثر حولهما التجاعيد، يناهز عمرها أيضاً فوق الخمسة والخمسين عاماً، متزوجة ولديها ثلاثة أحفاد صغار تتحدث

باللغة التركية، لم أكن أفهم ما كانت تقوله لنا: لكن السيد مروان كان يتقن التحدث بجميع اللغات، ولاحظت أنه يتقنها بشكل جيد جداً وممتاز.
نظرت إليهم بأن عليّ الصعود إلى غرفة النوم لأنه غلبني النعاس والتعب.
ودعت السيد مروان وصعدت إلى غرفتي، لأجد السيدة جانيت بانتظاري وبأنها أحضرت الكثير من الثياب والإكسسوار والعطورات الفاخرة.
ذهلت من كثرة الثياب الجديدة، وألوانها الزاهية، الجميلة، أصابتني الحيرة والشك من جديد، ثم البهجة والسرور لأني تذكرت بأنه ما عليّ سوى الصبر لمعرفة حقيقة ما أنا عليه، أو ما يجري حولي.
كنت على علم ويقين، بأن ذاكرتي ستعود لي يوماً من الأيام، في حينها سأعرف من أكون بالوقت المناسب.
سألت السيدة جانيت.
من أحضر كلّ هذه الأشياء الجميلة إلى هنا؟!
أجابت: منذ قليل أوصلتها السيدة ماري إلى هنا يا آنسة إنجي.
أكملت باقي كلامها، وهي تمسك بيدها أحد السراويل لتضعه في خزانة الثياب، بأن السيد مروان هو من أمر بطلب كلّ ذلك لك، فالسيد مروان يهتم بكلّ التفاصيل الصغيرة والكبيرة التي تخص أفراد هذا البيت، وأمورك الخاصة أيضاً.
قلت لها: حسناً إذاً ضعي كلّ شيء من يدك واذهبي إلى النوم، لأني مرهقة بشكل كبير ومتعبة وأريد أن أنام.

أجابتني: السيدة جانيت كما تريدين، لكن سأطلب منك أن تتناولين الدواء، وأرى مكان الجرح إذا كان يحتاج إلى مرهم أو دواء، أو أنه تحسن ولست بحاجة لأي شيء.

بعدما عاينت السيدة جانيت مكان الجرح، عدت وطلبت منها أن تذهب إلى غرفتها، لأنني أريد أن أنام، ويومي كان طويلاً ومتعباً جداً.
قبل النوم تمنيت أن أرى أي حلم يذكرني بحياتي السابقة أو كيف حدث الحادث الذي أدى إلى مصرع والديّ.
لكن لم يحدث أي شيء من ذلك التمني ولم أرَ أحداً من عائلتي في منامي، وظلّ لغز حياتي الماضية محيراً، ملازماً لي طوال الوقت.
استيقظت في صباح اليوم التالي من دون أي أمل من إعادة ما كنت عليه سابقاً، نظرت إلى الساعة الموجودة أمامي على حائط الغرفة كانت تشير إلى تمام الساعة السادسة صباحاً.
تسللت من سريري بإحباط شديد ونظرت عبر النافذة لأجد أن ضوء الصباح شق طريقه عبر السماء.
ارتديت ثيابي وانتعلت حذاء رياضياً أبيض، ومن ثم خرجت نحو الخارج إلى حديقة القصر، أتأمل أزهارها الملونة والمتنوعة من جميع الأماكن، كان بينها الورد الجوري الأحمر، والياسمين الأبيض، وأيضاً كان يوجد بينها أزهار الحبق والنعناع والشب الظريف.

يبدو أن السيد مروان، أحضر جميع أنواع الزهور معه من سورية.
كأني في حديقة عامة من حدائق مدينة دمشق، حتى أشجار الزيتون والدراق والخوخ والجارنك مزروعة في تلك الحديقة.
كنت أشعر بالحيوية والنشاط والبهجة، رغم القرار الذي اتخذته لأول مرة بكشف حقيقة حياتي الماضية، إلا أني في تلك اللحظات الأخيرة، قررت أخذ قرار آخر جديد ألا وهو اللامبالاة بالأيام القادمة، بأخذ استراحة محارب بينما تنكشف الأمور على مهل.
كانت أشعة الشمس تشرق وترسل خيوطها الذهبية على أمواج البحر الهادئة، تبرق وتلمع مع مراكب الصيادين.
سحرتني رؤية لون البحر الهادئ من بعيد، ومراكب الصيادين وصوت عربة القطار عند السكة الحديدية، أتأمل المناظر الطبيعية الجميلة، كأني في الجنة وأعيش الحلم في المنام.
ما هذا المكان الرائع الذي أقف فيه، وأنا أتعرف إلى كلّ شيء حولي.
نظرت نحو الأعلى رأيت السيد مروان، يقف على نافذة مكتبه ينظر لي من بعيد، ألقيت عليه السلام بإشارة من يدي ثم توجهت إلى داخل القصر.
فجأة رأيت السيدة جانيت تقف أمامي، قبل أن أصل إلى مكتب السيد مروان، تدعوني لتناول وجبة الفطور في قاعة الطعام.
قلت لها سألتحق بكم حالاً، بينما أعيد ترتيب نفسي من جديد.

أجابت بكلّ تواضع وهي تحني رأسها نحو الأسفل، سأساعدك في ترتيب أشيائك، يا آنسة إنجي.

خاطبتها بشيء من الاستغراب والقبول، حسنا إذاً هيا بنا.

عند الانتهاء من ترتيب وتزيين نفسي، عدت إلى غرفة الطعام وجدت أن السيد مروان في انتظاري.

تأملت طاولة الطعام، رأيت جميع أصناف الجبن البيضاء، وقطع فطائر الجبن والبرك على الطاولة كانت هناك تشكيلة واسعة منها، توارد على فكري منظر سوق الأجبان، بدأ السيد مروان يسألني.

هل كلّ شيء يروقك يا إنجي؟

إذا أردت أي شيء معين، أو تغييره أخبري فقط السيدة ماري وهي تحضره لك حالاً.

قلت له: لا كلّ شيء حولي جميل وأنيق.

بينما كنا نتناول طعام الفطور معاً، أكمل السيد مروان ذكرياته مع عائلتي، بالحديث عن جدي المرحوم محمود.

كم كان يحسن معاملته والاهتمام به؟

أيضاً كان يمتدح سلوك والدتي ويثني على تربيتها لباقي أفراد أسرتي.

خلال حديثه عن الماضي وذكرياته الحميمة مع عائلتي، أخبرني بأمر جعلني في توتر وذهول.

مخاطباً بنبرة حادة، يجب عليّ الالتحاق بالجامعة وإتمام دراستي حتى لا يفوتني العام الدراسي الجديد.

قائلاً لي: أسمعي يا إنجي.

ما عليك فعله في الأيام القادمة، سوى إكمال تحصيلك العلمي في الجامعة ستلتحقين بها في أي وقت تريدينه.

لقد تم تحصيل مقعد دراسي لك في كلية الهندسة المدنية هنا في العاصمة نيقوسيا.

سألته، لماذا كلية الهندسة المدنية؟

أليس هناك أي مجال آخر غير هذا الاختصاص؟

رد بهدوء، بينما كانت عيناه تحدقان بي، ويحرك قطع الجبن في الطبق الموجودة أمامه بالسكين.

أنت منذ الصغر، كنت ترغبين بأن تكوني مهندسة، ويكون لك مكتب إنشاءات هندسية، لتصبحي أشهر مهندسة على مستوى العالم.

كلّ شيء كان مستغرباً بالنسبة لي، هل حقاً أنا التي كنت أريد أن أكون مهندسة، أم هو من يرغب بهذا المجال؟

بدا لي في تلك الأوقات، كأني دمية متحركة، يحركها السيد مروان بيده كيفما يشاء، وأسير معه نحو خطة مدبرة بترتيب رهيب.

حركت برأسي وعيناي يملؤهما الفرح بالبهجة والسرور، أجل أنا موافقة.

إذاً متى سأبدأ الالتحاق بالجامعة؟

أجابني: منذ اليوم، أو الغد إذا أردت ذلك؟

فأنت تستطيعين الالتحاق بالجامعة بالوقت الذي تختارينه؟ ما عليك يا أنجي سوى أنّ تجتهدي قليلاً، والتركيز بدرسك جيداً، لتتخرجي من كلية الهندسة بمعدل جيد جداً وممتاز.

ثم تابع مزاحه بكلّ جدية وحزم، لن أرضى يا إنجي بغير تلك العلامات التامة في جميع المواد.

ممازحاً لي بغمزة من عينه اليمنى، بينما اختلط الضحك والمزاح ببعض الجدية بالقوة والتحدي.

في حينها بادرت بالسؤال إليه.

ماذا عن تَعلُّم اللغة غير العربية؟

هم هنا يتكلمون اللغة الإنجليزية، والقبرصية، والتركية، بينما أنا لا أفهم ما يتحدثون به أو حتى التحدث بلغتهم.

نهض السيد مروان من مكانه، وأمسك بيده منديلاً أبيض مطرزاً باللون الفيروزي مسح به يديه، وفمه مخاطباً إياي،

لا عليك يا صغيرتي إنجي من كلّ تلك المواضيع، الصغيرة والبسيطة.

نظر إلى السيدة جانيت بابتسامة فيها الكثير من اللبس والغمز.

ستعلمك السيدة جانيت بعض الكلمات، التي تحتاجينها بالبداية، ثم أنت من خلال تواصلك مع زملائك والاختلاط بين الناس، ستتعلمين نطق اللغة القبرصية بكلّ سهولة وإتقانها بشكل جيد، ولن يستغرق هذا الأمر

معك بضعة أيام قليلة أو معدودة حتى تتعلمينها، ستتقنين لغتهم بأفضل مما هم يتكلمون بها.

فأنت يا صغيرتي الجميلة إنجي، أذكى منهم جميعاً وستتفوقين عليهم بمعدلات عالية جداً، لا تقلقي من هكذا أمر نحن هنا جميعنا سنتعاون معاً.

أما الآن يا حلوتي المدللة، سنذهب للتسجيل في الجامعة، ثم بعد ذلك سنخرج للتنزه خارج العاصمة وداخلها، لكي تتعرفي أكثر إلى باقي أجزاء المدينة والأماكن الجميلة الرائعة التي يقصدها السياح من جميع أنحاء دول العالم.

هذه البلاد يا انجي، خلقها الله للتمتع بها، ولكي تشعرك بالشباب والخلود مدى الحياة، إنها جنة الله على وجه الأرض.

قمت من خلف طاولة الطعام متحركة، بذهول وببطء شديد مشيت خلفه بخطوات مترددة، ثم خرجنا معاً.

بينما كان يستدير إلى الخلف ويشير بيده إلى السيدة جانيت عندما أعود أريد كلّ ما طلبته منك أن يكون جاهزاً وعلى أتم ما يكون، أسمعت يا جانيت ما قلته لك.

لم أعلم حينها ما هو الشيء الذي طلبه السيد مروان من السيدة جانيت.

أول مكان قصدته، في ذلك اليوم مع السيد مروان، هو مكتب رئيس الجامعة في كلية الهندسة المدنية.

من أكثر الأشياء الذي كانت تلفت نظري بالسيد مروان أنه كان يمسك بيده حجر النرد الفيروزي، يحركه بين أصابعه ثم يضعه في جيبه ومن بعد ذلك يخرجه ويحركه ثانية.

كانت حركات السيد مروان تثير الاستغراب والضحك بعض الشيء.

اهتم بنا السيد رئيس الجامعة بشكل جيد، وكان اهتمامه مبالغاً فيه.

كان يدعى بالدكتور ماكران.

ثم طلب الدكتور ماكران من أحد موظفيه، إنهاء إجراءات القبول والتسجيل الجامعي.

ومن ثم تمت مرافقتي إلى قاعة الطلاب والطالبات، للتعرف إلى مكان قاعة محاضرات الطلبة في الفصل الدراسي الأول، وأن أختار المقعد أو المكان الذي أريده.

دخلت إلى قاعة المحاضرة وكان أستاذ الجامعة، يدعى الدكتور جاك من اليونان، ولكنه مقيم في قبرص، يلقي عليهم محاضرة بمادة مقاومة المواد.

حين دخلت توجهت جميع أنظار الطلبة نحوي بينما الرجل المرافق لي اقترب من الأستاذ المحاضر، وهمس في أذنه، لا أعلم ما هو الأمر الذي أخبره إياه عني.

بينما نظر نحوي الدكتور جاك وابتسم، نزع نظارته الطبية عن عينيه، وأشار لي أن أجلس على المقعد الموجود أمامه مباشرة.

كنت أرى وجوه الطلبة، في حالة فضول رهيبة منهم من حدق باهتمام لمعرفة أمر ما يحيره، ومنهم من كان غير مبالٍ لوجودي بينهم، والآخر ينظر بزاوية عينه على أني قطعت لهُ سلسلة أفكاره وتركيزه بالمحاضرة، ما على الجميع غير الالتزام بالصمت والهدوء لمتابعة المحاضرة.

كان أكثر ما يقلقني بينهم أولئك المتشددون الرافضون للاجئين السوريين على أراضيهم كما كنت أسمع في نشرات الأخبار وما يدور من أحاديث بين السيد مروان والسيدة جانيت.

عند انتهاء الأستاذ جاك من المحاضرة، اقتربت مني فتاة نحيلة القوام، شعرها يميل إلى الأحمر الفاتح، تضع خصلات خضر وزرق ملونة، وأيضاً كان يوجد حول عنقها من الخلف وشم مرسوم عليه ثلاث نقاط وبومة، شعرت كأنها من تلك الفتيات اللاتي يتبعنا الموضة الرخيصة، سألتني من أين أنت، وما هو اسمك؟

سررت عند سماع صوتها أنها تتحدث باللغة العربية.

أجبتها إني من مدينة دمشق في سورية واسمي إنجي.

ابتسمت ابتسامة عريضة حتى بانت تركيبة أسنانها التي تضع عليهم حبات من الخرز اللامع.

مدت يدها للتحية قائلة لي: أنا "مارغريت حمود" بينما جميع الطلبة هنا والموجودون للاختصار، يقولون لي اسم "مارغوا"، ولكن اسمي الحقيقي مارغريت، أنا من القامشلي في شمال سورية.

الجميع ينظر نحوي باستغراب، كان مبالغ بردة فعلهم اتجاهي، بينما غيرهم ينظر لوجودي بعين العطف والشفقة فتاة سورية مسكينة، جاءت من تحت القصف والضرب والدمار والجوع والتشرد.

منهم من استفزه وجودي بينهم، لاجئة تشحذ رغيف الخبز والعيش الرديء.

بدأ الجميع بتوجيه أسئلتهم الكثيرة نحوي، كأنها سهام من نار، والأمر الأكثر حيرة أو محير كان بالنسبة لي، من أسئلتهم المتكررة.

كيف أصبحنا لاجئين متجولين في أصقاع الأرض؟

وما الغاية من جعل شعب وريث أقدم حضارات العالم، بأن يصبح لاجئاً عند الغرباء، ليعيش مجرد حفنة من المارقين والخارجين عن القانون، حياة الرفاهية على أرض توارث حضاراتها الأجداد.

كيف أصبحت الدار والديار والأوطان، لا يعبث بها سوى المرتزقة وقطاعي الطرق والبوم والخراب؟

أراد الجميع مني في حينها، معرفة حقيقة ما يرونه على شاشات التلفزة من أحداث مروعة عن أخبار السوريين بالقتل والدمار والهجرة، وخاصة مشاهد الأطفال والنساء والشيوخ الذين يموتون تحت القصف، وغرق عشرات الجثث في البحر أثناء عبورهم إلى أوروبا.

كنت في حالة صمت وخوف، فأنا لا أعرف من أكون أصلاً، وما جاء بي إلى هذه الجزيرة ولا أتذكر أي وجه مرّ معي سابقاً.

بدأت أسأل نفسي.

هل حقاً أنا سورية أم عراقية أو مصرية؟

لكن لهجتي هي الوحيدة التي تدل على أني سورية، ومن مدينة دمشق.

لأني كنت أتحدث معهم باللهجة الشامية، وهم لا يفهمون ما أرد عليهم سوى بالإشارة، وكان المترجم الوحيد بذلك الوقت، تلك الفتاة صاحبة الشعر الأحمر والوشم الرديء، مارغوا.

لا أعلم إذا كانت مارغوا، في أثناء الحديث معهم، تنقل لهم الكلام الصحيح أم لا.

لأنني كنت أراهم يضحكون ويسخرون بمزاحهم الغريب فيما بينهم، عندما كانت تتحدث مارغوا إليهم بلغتهم الغريبة عني.

السيد مروان يتحدث أيضاً مثلي، وعدا عن هذا كلّه الأوراق الرسمية التي أراني إياها وبطاقتي الشخصية عند لقائي به لأول مرة.

السيدة جانيت أيضاً أكدت لي أنني فتاة سورية الأصل والمنشأ، والبطاقة الشخصية الموجودة في حقيبتي، تدل على أني فتاة سورية.

لماذا هؤلاء الفتية يجعلونني أشك في أمري من جديد يا إلهي على هذا الضياع الذي أعيشه منذ أن استيقظت في المشفى لأول مرة إلى هذه اللحظة.

في بادئ الأمر أصابني الإرباك والخجل مما كنت سأجده من مفاجآت واختبارات أو إحباطات، ثم أصبح الأمر اعتيادياً بالنسبة لي بالذهاب إلى

الجامعة بشكل يومي، لم أكن من الفتيات اللاتي تنزوي في الزاوية أو ترفض اللقاء أو الاقتراب من أحد بل كان الفضول في التعرف إلى باقي الطلاب من أولى اهتماماتي.

لا أعلم لماذا كنت أرغب بالتقرب من الجميع ومعرفة أسماء كلّ من يمر من أمامي، كان يوجد بينهم طلاب من مختلف أنحاء دول العالم.

بعد مرور فترة من الزمن، تعمقت معرفتي مع الشبان والفتيات العربيات، وأصبحنا على علاقة قوية فيما بيننا، كنا نلتقي جميعنا في مكان للتجمع الطلابي الخاص بهم القريب من الجامعة.

يلتقي طلاب الجامعة فيه باستمرار، وهو عبارة عن كافيتريا أو مقهى كبير، يتسع لأعداد لا بأس بها من الطلاب، كأنه كان مخصصاً للطلاب العرب فقط.

اسمه "أميرال راكس"، كان الطلاب العرب يلتقون ويتجمعون فيه أثناء فترة الدوام الرسمي للجامعة، حيث يوجد في المقهى جميع مستلزمات الطلبة، وخاصة المكتبة الضخمة التي تظهر للعيان، بشكل رائع وراقٍ، فيها الكثير من الكتب العلمية والأدبية القيمة والنادرة، كانوا يتبادلون الأحاديث والمشاورات والبحث عن المواضيع التي تخص دراستهم.

إنه مكان للدراسة أكثر مما هو مكان للتسلية وإضاعة الوقت.

في وقت قصير جداً، فهمت كلّ ما يتعلق بأمور الجامعة، حتى أتقنت فهم جميع الرسائل والمحادثات السرية الخاصة والمشفرة فيما بينهم، لذلك أصبحت من ضمن ذلك التجمع في مدة قصيرة.

الشيء الأكثر دهشة، بعد برهة من الزمن علمت بأن الجامعة التي أدرس بها في كلية الهندسة المدنية، هي بالأساس ملكٌ للسيد مروان.

ليس هذا فقط بل لها فروع متعددة في عدة أماكن في قبرص.

هذا ما علمته لاحقاً بالمصادفة عندما سمعت أحد الطلاب كان يدعى جعفر، وهو وافد من طلاب العراق يتحدث عن معرفة والده بالسيد مروان، كان يتحدث ويتفاخر بمعرفة السيد مروان وبأنه رجل غني ويملك الكثير من العقارات والفنادق ليس في قبرص فقط بل عنده أملاك وعقارات باليونان وتركيا أيضاً.

كلّ هذا الكلام زاد ثقتي بنفسي أكثر وقوى من عزيمتي، وشعرت بأن الحياة لن تخذلني هذه المرة.

والأجمل من كلّ ذلك فقد تعلمت قيادة السيارة بفترة وجيزة جداً، بدأت بالذهاب إلى الجامعة بها بنفسي دون أي مرافق لي.

ثم اكتشفت بأني أعشق العلم والدراسة، لقد كنت من الطلبة المتفوقين في الجامعة.

والأروع من كلّ ذلك حين عودتي إلى المنزل، كانت السيدة جانيت، متعمدة فعل ذلك الأمر، لا تتكلم معي مطلقاً باللغة العربية، أصبح كلّ كلامها

موجهاً لي أو معها باللغة القبرصية اليونانية، أو التركية، أو الإنكليزية، تعلمت منها الكثير عن ثقافة تلك الشعوب في المنطقة، من عادات وتقاليد وحكايات تاريخية مرّت بها الجزيرة والغزو التركي لقبرص والتنازع الإقليمي فيما بينهم، وكيف انضمت تلك الجزيرة للاتحاد الأوروبي لاحقاً.

في كلّ مرة عندما ألتقي بالسيدة جانيت، كانت تحكي لي قصة مختلفة عن سابقتها، كأني طفلة صغيرة، تحكي لها أمها حكاية قبل النوم.

من أكثر الأحاديث التي ما تزال عالقة في رأسي عندما قالت السيدة جانيت إنها لا تحبّ العلاقات الاجتماعية العائلية وتدعوها "الواجب المزيف" باللف والدوران، وهي غير مفهومة بالنسبة لي، بتنهديه مؤلمة تزفر بقلب يشهق نفساً عميقاً من الألم.

رددت السيدة جانيت عبارتها الحزينة قائلة: تطوي السنين أعمارنا وتبقى الأيادي تكتب عن الأحلام. لا أعلم لماذا كانت تردد هذه العبارة، قد تكون السيدة جانيت تعرضت في حياتها للكثير من المواقف الصعبة أو المتعبة والمرهقة، أخبرتني بأنها منذ طفولتها الباكرة، كانت تكره الكذب، والأحاديث الأحادية المنقبة بالضبابية، وعدم الوضوح بالرؤية، وخاصةً في الأسئلة والأجوبة التي لا تحمل معنى بالإيجاب أو النفي، كانت تخبرني كيف أنها تكره الكذب المهذب، وبأنها لا تحبّ كلّ أشكال الاحتيال وخاصةً الاحتيال الثقافي المسمى بالدبلوماسية، أو الاحتيال العاطفي، المسمى بالعلاقات العائلة والأسرية.

قد يبدو بأن السيدة جانيت ربما ورثت ذلك من الراحل والدها، فهي تصفه بالشخصية الجدية الذي لا يهوى المزاح أو النقاش والحوار المطول.

تعودت أن أسأل السيدة جانيت بلا تردد، عن كلّ شيء، منذ أن رأيتها لأول مرة، أي عند استيقاظي في هذا القصر لأول مرةٍ، شعرت كأنها فرد من أفراد عائلتي، تربطني بها علاقة وداد ومحبة، لكن نمطاً غريباً من الأسئلة كنت أتحاشاه قدر الإمكان معها، كنت وما أزل أجد أسئلتي لها بلا معنى وأعتقد أن معظم البشر تكره ذلك النمط الغبي من الأسئلة.

كنت أسألها: كيف وجد الإنسان على هذه الأرض، لماذا نحن موجودون أصلاً فيه، وما الغاية من وجود الإنسان على الأرض، وهو كارثة حقيقية عليها، بعكس باقي الأجناس المتواجدة فوقها، كالحيوانات مثلاً هي مخلوق مكمل للسلسلة الغذائية للأرض، تساعد في تغذية التربة من بقايا الروث، مثلا على سبيل المثال.

لكن السيدة جانيت على ما بدا لي في حينها، بأنها غير متدينة، كان عليها بأن تجيبني بشكل مباشر ومن دون لف أو دوران بأن الله هو من خلق الإنسان على وجه الأرض بل قالت عكس ذلك وفسرته من وجهة نظرها من الناحية العلمية.

كان سؤالاً أجوف من قبلي، يدل على سذاجة السائل وضحالة فكره، والعظمة تكمن في السؤال وصياغته أكثر مما تكمن في صحة الجواب ودقته.

كانت السيدة جانيت تتكلم بشكل مبطن يدل على شخصية أخرى غير مفهومة، لكنني سألتها يومها.

ما هو أبشع شيءٍ في الحياة؟

كان جوابها بسيطاً، عميقاً، كما العادة غير متوقع، فقد توقعت بعد تعرضها للطلاق من زوجها وعدم إنجابها للأطفال أن تقول لي الزواج، أو الرجال.

ردت بكلّ حزم وصلابة بأن أبشع ما في الحياة هو الموت الرحيم بأن تعيش في هذه الحياة مهمشاً لا وجود لك سوى السعي وراء سراب من الأوهام ثم تجد أن العمر ضاع في تحقيق أهداف وأحلام الغير، بأسماء كثيرة نتوارثها عن سلفنا.

تابعت حديثها وأنا أنظر لها بذهول فاغرة فمي، كمن يشاهد فيلم رعب لجريمة قتل تحدث أمامه لأول مرة، عندها تابعت السيدة جانيت شارحة ما تقصده: أننا لا نعيش الحياة الأبدية التي نريد أن نحياها.

أغلقت فمي، بلعت ريقي، ثم سألتها بأسلوب كيدي: وما يمنعك من تغيير حياتك يا سيدة جانيت، أو بترك كلّ ما يتعلق بالأمور التي لا تحبينها أو ترغبين القيام بها.

ردت وهي تسحب سيجارة من علبة السجائر، قلبتها بين أصابعها، ثم وضعتها بين شفتيها الرقيقتين الحادتين الزوايا، وأشعلت نار سيجارتها بعود ثقاب خشبي.

أنا لا أتكلم على المستوى الشخصي، بل على البشرية جمعاء وعني، سحبت نفسا عميقا من سيجارتها الغليظة، وأكملت لما وضحت علامات عدم الفهم على وجهي.

سؤالك عن الوجود وليس عن وجودي أنا يا إنجي.

في هذه الحياة بشكل عام وليست عن حياتي أنا، لو كان سؤالك: ما هو أبشع شيءٍ في حياتك؟ لكان الجواب هو أي شيء كالسياسيين، والجمعيات الخيرية المزيفة في مجتمعنا، أو المثقفين الوصوليين الذين يخدعون من حولهم بأنهم أكثر ثقافة وعلم، مما هم حولهم، أو المرض والوحدة أو الفقر والجوع، وفاة الأحبة، أو فقدان الأشياء القيِّمة كالأمل والحبّ والعطاء المفقود بلا ثمن، أو الأشياء التافهة أيضاً مثل فقدان حقيبة سفر بعد رحلة ممتعة على شاطئ البحر، قد يغدو فقدانها بشعاً، في لحظتها ولكنها تبدو صادقة في معناها بتلك الأوقات، لكن يا عزيزتي إنجي أنت سؤالك لي بشكل عام أو خاص.

ضحكت من سخافة الحوار غير المرغوب به من قبل السيدة جانيت، كانت الإجابات من قبل السيدة جانيت صادمة وغير واضحة.

أكملت السيدة جانيت، و هي تحرك السيجارة بيدها ثم وقفت عند النافذة، إن أكثر من يتم خداعنا في حياتنا، هم من أقرب المقربين لنا، لأن الغرباء يا عزيزتي" إنجي" لا يستطيعون خداعنا لسبب بسيط جداً لأنهم بكلّ بساطة، هم غرباء عنا، يطلق عليهم هذا المسمى لأن الإنسان بالفطرة يخاف الغرباء.

بعكس من نطلق عليهم مسمى الأقرباء، من نعتقد بأنهم صمام الأمان في وجودنا، وسلاح القوة من أي مجهول قد يؤلمنا يوماً من الأيام أو لحظة من اللحظات، لذلك تأتي الأزمات القلبية عند معرفة سبب خداعنا من قبلهم أو من أقرب المقربين لنا، أو من نظنهم أصحاباً وأحبة وأغلى الناس على قلوبنا في حياتنا.

حاولت أن أظهر لها أنني فهمت المقصود من معنى كلامها، لكنني فشلت على ما بدا لي أنها أدركت ذلك.

قد تكون تقصد السيد مروان في تلك اللحظات، ولكن ما علاقة السيد مروان بذلك الحديث الدائر بيننا هي تخبرني أنها لا تحبّ اللف والدوران في علاقة البشر فيما بينهم، تصفهم بالدبلوماسية المزيفة أو المخادعة.

كانت كلّ ما تتلفظ بعبارة تظهر على ملامح وجهي حركة استنكارية، أو شهقة استفهامية بلهاء.

أدركت حينها أنني ما زلت بعيدة عن فهم الفكرة، التي كانت السيدة جانيت تحاول إيصالها لي.

أخذت نفساً عميقاً وطويلاً، وتابعت السيدة جانيت الشرح، جهاز التحكم في حياتنا لا يملكه الجميع يا إنجي.

كلّ شيء متوقع في عالم المال والأعمال والإجرام اليومي الذي نعيشه، بسبب الجشع والطمع وقتل الإنسان لأخيه الإنسان.

بدأ يغيب التشويش من ذهني وسألتها:

تعني أن نفكر بشيء ما خارج الحياة؟

هزت برأسها بالموافقة، ثم رجف قلبي حين لم يخطر على بالي إلا الموت.

سألتها بفزع، وماذا عن خارج الحياة؟

قالت: بلا اكتراث، كلّ شيء.

لم أفهم، ولم أنجح من كلّ ذلك الحديث والجدال الطويل الذي دار بيننا في تلك الليلة من فهم ما تريد، ولم أظهر أو أرغب أن أبدو غير ذلك أمامها.

قلت: ممازحة لها، ما عليك فعله يا سيدة جانيت، هو أن ترتاحي وتذهبي غداً في الصباح الباكر لرؤية أفراد عائلتك ليعيد لك ذلك الوقت معهم، القليل من الأمل في الحياة، والحبّ والمودة بين أفراد أسرتك.

ثم صدرت تنهيدة قوية من داخلي، ها أنا لا أتذكر أيّ كان عن حياتي السابقة، ولا حتى وجه أمي وأبي والألعاب التي كنا نلعب بها مع إخوتي وأخواتي وأبناء الجيران أو حتى إذا كنت أرتاد مدرسة معينة في دمشق.

لكن في تلك اللحظة، حاولت بكلّ تعنت وجهد أن أسمح لعقلي أن أبسِّط ما فهمت من حديثها الملغوم غير الواضح للفهم، أن التجاهل هو شكلٌ من أشكال الحياة الممتعة بالنسبة للبعض من البشر.

أجابت السيدة جانيت إن التجاهل هو حياة الإنسان الدنيوية.

ردت وهي تقلب بسيجارتها بين أصابعها ثم وضعتها بين شفتيها وسحبت منها نفساً عميقاً.

تجاوزت الثامنة والخمسين من العمر، وما زلت أجد صعوبة في إيصال أفكاري وفهمي لمن هم حولي.

صمتت لوهلة، لعقت ريقها، والدمع يفر من عينيها.

قالت: في الحقيقة أجد صعوبة في كلّ أنواع اللف والدوران، الذي يمتاز بها كلّ من هم حولي، مع أنني أعرف تماماً أن اللف والدوران هي غريزة الكون، كما أعتقد أنني لست بارعة في إيصال أفكاري، وتلك هي لعنتي.

حاولت عندها أن أقول لها: بالعكس إن ما تقولينه واضحٌ جداً.

لكنني، قلت: حسناً إذاً جميعنا نحتاج للف والدوران في حياتنا لكي نصل إلى الهدف الحقيقي لشخصيتنا الحقيقية، ربما أنا لم أفهم الفكرة.

قالت: وهي تطفئ سيجارتها الأخيرة، عندما لا نفهم الأمر، نتهم صاحبه بالمراوغة والدبلوماسية.

يبدو أن السيدة جانيت تتألم بصمت شديد، عندها أسرار جمة وكثيرة تربكها وتحط من قدرتها على مواصلة النقاش والحوار الجاد والهادف حولها.

ثم قالت لي: ممازحة، يجب علينا أن نكمل التعلم باللغة الإنكليزية غداً، سننام الآن لنكمل باقي دروسنا باكرا.

قلت لها: أطفئي الضوء خلفك وسنتابع لاحقاً، أراك عند الصباح.

تصبحين على خير.

أمور أخرى غير مصنفة

كنت أرى السيد مروان، والسيدة جانيت يحضران جميع المناسبات والشعائر الدينية فقد كانت السيدة جانيت من الطائفة الكاثوليكية، والسيد مروان كان يقول إنه مسلم فلماذا يذهب إلى الكنيسة كلّ يوم الأحد.. ويذهب أيضاً إلى الجامع يوم الجمعة.

حاولت مراراً وتكراراً أن أفهم شيئاً عن هذا الموضوع ولكن كانت المراوغة لعدم معرفة الحقيقة بإجابات مختلفة عن سابقتها.

في كلّ مرة كان يرد على سؤالي بأن أي مكان يقصده الإنسان لعبادة الله، يكتب له يوم القيامة ألف حسنة.

بعد أن زاد انشغالي بحضور جميع المحاضرات في الجامعة، لم أعد أكترث كثيراً للكثير من تفاصيل حياة السيد مروان أو لأمور السيدة جانيت.

بل أصبح جلّ اهتمامي، ينصب على تعلم اللغة الانجليزية واللغات الأجنبية الأخرى في أقصر وقت ممكن، بينما أكثر ما ساعدني، وقوى من إتقان اللغة الانجليزية واللغات الأجنبية الأخرى، بأن السيد مروان أحضر لي جهاز حاسوب محمول، وأيضاً هاتفاً محمولاً كنت أطلع على كلّ معلومة أحتاجها للترجمة.

كنت أرى الأشياء تحضر أمامي من دون أن أطلب من السيد مروان أي شيء.

في المرحلة الأولى، أو في أدق التفاصيل الصغيرة في الأسبوع الأول، من دخولي للجامعة وجدت صعوبة كبيرة في التعامل مع زملائي من الطلبة، كان مزاجهم المتقلب من إحدى تلك الصعوبات، شعرت بالوحدة ولا رغبة لي بالتقرب من أحد، على الرغم من وجود شبان يلفتون النظر من الوهلة الأولى.

لم يدم هذا الشعور سوى بضعة أيام قليلة، وكان ذلك في بداية التحاقي بكلية الهندسة المدنية.

لا أعلم لماذا لم أرغب بالتقرب من أحد أو التعرف إلى أي فتاة أيضاً من فتيات الجامعة، كان كلّ ما أرغب به هو معرفة حقيقة وصولي إلى قبرص، وهل ما أخبرني به السيد مروان حقيقة أم أنها كانت حكاية كاذبة من حكايات إخفاء الحقائق عني.

ثم بدأت بالبحث عن أقرباء لي عن طريق الانترنت، وجدت بأن عائلة عيسى عائلة كبيرة ومتعددة النسب في أكثر من محافظة في سورية ما زاد توتري وشعوري بالحيرة والقلق، مما كنت أبحث عنه، ولكن بما أنني لست من النوع الذي ينزوي في الزاوية، لم يدم ذلك الأمر معي كثيراً حتى تعرفت إلى جميع الطلبة، بعضهم من العرب بشكل خاص.

إلى أن التقيت في الجامعة بشاب جذاب، وجميل الطلة، يشبه في وسامته عارضي الأزياء، أو نجوم هوليود، كان اسمه يعقوب من حمص في سورية، يدرس بكلية طب الأسنان.

جاء إلى قبرص عن طريق منحة دراسية مقدمة له من قبل الجامعة في دمشق.

دخل يعقوب حياتي كهمسة حنونة.

كنت أنتظر قدوم اليوم التالي بفارغ الصبر والترقب كي أرى يعقوب ونظراته المتلاحقة تتبع خطواتي.

أحاول بالقصد بأن أمر من أمامه، كي يشم رائحة العطر الذي أتعطر به من أجله، وأحمر الشفاه الذي أضعه كي يثير انتباههُ وألفت نظره نحوي، أتزين بأجمل الحلي وأرتدي أجمل الثياب كي أثيره.

تعلقت به، وتقبلته، أحببته أكثر من ذاتي، أحببته إلى درجة الجنون، ولا أجد السعادة إلا بين يديه، يرسم لي وجوده ابتسامة خجولة على وجهي.

تصغر الدنيا بعيني وتضيق بي عند غيابه، تغيب السعادة يغيب الفرحّ، أعشقه إلى درجة الأنانية.

كنت أشكر الحياة في كلّ لحظة لأنها جمعتني به.

بدأ يتقرب يعقوب مني، إلى لحظة أن وقف أمامي عند خروجي من باب الجامعة، ومد يده للمصافحة، والتعرف إليّ عن قرب، شعرت بأن الكون

أصبح خلفي فرقة موسيقية، وقلبي بدأ يدق على وقع سماع صوته كطبلة خلف راقصة شرقية تتمايل مع كلّ إيقاع تتناغم معه.

ما أجمله من إحساس وشعور لحظة لن أنساها مدى الحياة كنا دائماً أنا ويعقوب نلتقي في الكافتيريا القريبة من الجامعة، اسمه كافتيريا "ادميرال"، إلى أن أصبح وجود يعقوب روتيناً يومياً بشكل دائم، ومحبباً بالنسبة إلى فتاة أصبحت الحياة تغريها بأي شيء، حتى أني لم أعد أستطيع أن أمضي يومي من دون اللقاء به أو سماع صوته طوال الوقت، أشعر بالطمأنينة والارتياح بوجوده، أو بجمال الكون من خلاله.

كانت نظرات الانجذاب، تربط أحاسيسنا ومشاعرنا بقوة متسارعة إلى أن اعترف لي بحبّه وغرامه بي.

كان ذلك اليوم له شعور مميز أن أحظى بحبّ شاب راقٍ وجميل كشخص يعقوب.

في أول لقاء بيننا اعترف يعقوب بأنني لوحة من الجمال والأريج لا توصف، بل تبقى في الوجدان، ويعجز القلم عن رسمي، وحينما أغيب عنْ نبضاته لا يفتقد الهدوء والراحة بل يفتقد النبض بداخله.

في إحدى المرات كتبت رسالة اعترف بحبّي لأنني لا أستطيع أن أقول له بصوت مرتفع فأنا ما تزال بداخلي طفلة صغيرة خجولة لا تعرف البوح بمشاعرها على العلن وأمام أي أحد مهما كانت العلاقة بينهم قوية.

حينها اعترفت له كيف كنت أحتاجُ إلى غريب، أسرُدُ له كلّ تفاصيل ألمي، كيفَ أهربُ وأرحل منك وأنت تُحيطني من كلّ صوب ولا تفَارق خيَالي.

كيف أكتب أحبّك بشكل دقيق يصفُك كما أنت في قلبي، تأكد يا يعقوب سيبقى قلبي سنبلة مائلة نحو شمسك.

أعترف أني كلّ ليلة أقف في شرفتي كظل الفجر ينتظر بزوغ عينيك، وحين تشرق يتلمس نبض قلبي من لحظك سبل الحياة.

أعترف أن نظرة عينيك كما البرق، يخطف لحظي، يبدد عتمة روحي، ثم يغسلها بمطر من حنين، حين تبتسم، يصفق جمهور نبضي، ليرتفع ستار الصمت ويبدأ العرض الشفيف من بوح الليل، حين تنادي اسمي، أشعر كأنه قبلة من ثغر القمر، حطت جبين الشمس فأشرقت بسعادة غمرت الكون بأكمله.

آخر اعترافاتي لك يا يعقوب، بأن كلّ بطل في رواية أكتبها يحمل شيئاً منك، فلا تغر إن قلت أعشق كلّ أبطالي، لو أن صوتك، يطرق باب قلبي الآن لاحتضنته كما تحتضن الأرض قطرات المطر.

سأخبرك كم تبدو الحياة جافة من دونك.

أصبحت أنا ويعقوب ثنائياً ملازماً للآخر، في جميع أوقات الدوام بالجامعة لا نفترق سوى حين بدء المحاضرة والانتهاء منها يكون اللقاء بشغف وشوق وحنين لا يوصف.

كان يعقوب يقدمني لكلّ زملائه ومعارفه على أني خطيبته، حتى في إحدى المرات دعاني إلى بيت خاله لتناول طعام الغداء.

حيث رحبّ بي خاله وزوجته أشد الترحيب، كما أني خلال تلك الزيارة، تواصلت مع والدة يعقوب ووالده عن طريق مكالمات صوتية، والاتصال المرئي بالمكالمات عبر الفيديو.

كان يوماً مميزاً أن ألتقي بشاب من سورية بأخلاق وأدب وجمال يعقوب، كلّ شيء كان من المستحيل تصديقه في حينها.

كانت نظرات يعقوب تأسر كياني وتشل تفكيري، أشعر كأن الكون مغيب في تلك الأوقات التي ألتقي به حتى أني نسيت كلّ العذاب الذي تعرضت له سابقاً.

لم أعد أفكر في البحث عن عائلتي الحقيقية أو حتى معرفة أي شيء عن حياتي الماضية.

بعد قرابة سنتين على علاقة حبّ وعشق وغرام لا يوصف سوى بالأحلام والخيال، انهار كلّ شيء في ذلك الاتصال المفاجئ من قبل يعقوب.

كانت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر من يوم السبت، الحادي عشر من شهر سبتمبر لعام خمسة عشر وألفين.

كنت في ذلك الوقت مع السيد مروان والسيدة جانيت، نعد ونجهز أنفسنا للذهاب في قارب للصيد عند المساء والتنزه في البحر على متن قارب السيد مروان.

حين سمعت صوت يعقوب، والحشرجة الخانقة في صوته لم يكن في حالة جيدة، اتصال يعقوب المفاجئ سبب لي الكثير من القلق، والموعد المباغت جعلني في دوامة أفكار تتراكض حولي، غير مبالية بما سيحدث حينما اعتذرت من السيد مروان، والسيدة جانيت عن عدم ذهابي معهم في تلك الرحلة التي رتبت لها السيدة جانيت منذ ثلاثة أيام، أو في تأخر الوقت الذي سأقضيه خارجاً، ارتديت معطفي الأسود ليغطي ارتجاف جسدي، وتوتر أعصابي المتصاعد.

تناولت هاتفي المحمول وحقيبتي وأنا أتسابق مع الدقائق للوصول إليه، قدت سيارتي بجنون.

وصلت قبل يعقوب إلى المكان الذي يضج بالذكريات معه على الطاولة التي كانت تصغي بصمت الى الأحاديث الشائقة والنظرات الملتهبة وما يدور بيننا من عشق وشغف.

بصوت أعاد إليّ الحياة التي أقتلعها اتصاله الأخير.

كيف حالك يا إنجي؟

بصوت مرتجف وكلمات تكاد تخرج من أحباله الصوتية.

أجبته: بسرعة، الحمد لله.

بكلّ هدوء، طلبت منه أن يخبرني ما الأمر الذي دفعه لهذا الإصرار بالمجيء إليه.

منذ ساعتين فقط تركته، كان موعدنا على هذه الطاولة.

أمسك يدي ضاغطاً عليها بقوة، شعرت بالعرق الذي يتصبب من جبينه ويديه المرتعشتين.

لم أكن أتقن لغة الجسد أو إشاراتها، ولم أصدق صحتها يوماً من الأيام.

لأن هناك الكثير من حولنا، يتقنون فنون التمثيل والتظاهر بما يريدون إظهاره للأخرين، وبما أني إنسانة واقعية وعملية لا أفهم إلا بلغة الحقائق الملموسة، لم أعر أي انتباه لحركات يديه أو جسده، من أجل ذلك وجدت صعوبة في تصديق ما يقوله أو تكذيبه.

أنتِ تعرفين يا إنجي حجم الحبّ الكامن لك في قلبي وعقلي وكلّ جزء من جسدي ينطق باسمك، إلا أن هناك موضوعاً أثقل كاهلي ولا خيار لي إلا السفر إلى دمشق في سورية.

سألته مستغربة، لماذا إلى دمشق؟

أجاب وعيناه حائرتان لا تلتقيان بنظري.

لأن أبي حدث معه حادث في مصنع لإنتاج الطاقة الشمسية كان والد يعقوب مهندساً متخرجاً في كلية الهندسة الكهربائية والميكانيكية، ووالدة يعقوب كانت تعمل معيدة في كلية الاقتصاد لمادة اللغة العربية.

صمت المكان بصمت سكون الليل، من الزمن وكأنه الكون قد توقف عن الدوران.

تيار من الألم اقتلع الوجود فأصبحت في عالم آخر، عالم غير مرئي يمتلئ بالوجوه الحزينة.

أبواب مفتوحة تتلاعب بها الريح كيفما تشاء، وأصوات مخنوقة غير قادرة على الصراخ، إحساس مميت في تلك اللحظات ابتلع العالم كأني في دوامة بعرض البحر، ألتف بها بشكل لولبي لا حبل للنجاة من تلك الدوامة.

بدأت عيناي تنهمر بالدموع، وأنا أسأله متى ستعود، أجابني بأنه لن يعود سيكمل باقي دراسته في جامعة دمشق.

كدت في لحظتها أن أصاب بالإغماء، وشريط الذكريات الجميلة التي تجمعنا معاً يمر ببطء شديد في مخيلتي، حاولت جاهدة أن أقنعه عن العدول عن تلك الفكرة، ولكن كان الإصرار في ذلك الوقت سيد الموقف، حينها أدركت بشكل قاطع بأنه لا وجود للطرق المؤدية إلى المخرج، ولا للممرات في تلك التائهة التي وضعني بها يعقوب، التي تزيل الارتباك في لحظة طيش، جميع الأبواب أصبحت موصده بأحكام خلفي، أو بعض ما تبقى من بصيص الأمل، تشعرني أن أحيا من جديد.

كلّ ما في هذا العالم أقاومه، بصمت بأعين أتلفها الدمع، وقلوب مزقها الجفاء وألسن بتر منها الحديث، لعلها تجد بصيص ضوء أو حتى نظرة أمل، لكن عبثاً ما تصبو إليه، أفكاري بالعدول عن قرار الرحيل من قبل يعقوب وكأنه حكم على علاقة دامت مدة طويلة من الزمن بالإعدام...

أنا الآن بين يديه ليرمي بي من أعلى قمة شاهقة، لأرتطم بالأرض وأتمزق وتتمزق معي الآمال والأحلام، وكلّ الأيام القادمة التي بنيت عليها مستقبلي، كلّ شيء ذهب بمهب الريح.

ماذا جرى لتنهار كلّ تلك الأحلام في قرار واحد؟
مجرد اقترابي من السعادة، تنهار حياتي كجدار مضى على بنائه آلاف الأعوام.
أين أنا من هذا العالم المسكون بالأوجاع؟
أين هي تلك الفتاة التي تسأل كلّ الأسئلة دفعة واحدة؟
لماذا تتغيب كلّ الأسئلة الآن في رأسي؟
شيء واحد فقط جاء في فكري أثناء ذلك أنه قد يكون ملّ من فكرة الارتباط ولا يريد فتاة تبادله العشق بكلّ هذا الانفتاح؟
قد يكون يعقوب شرقي الطبع أو التفكير، ولكن لم يظهر لي ذلك المزاج الصعب خلال عامين كاملين على المواعدة فيما بيننا.
تمالكت نفسي، لكي أستعيد القليل من الهواء إلى أنفاسي، أو على الأقل أن أستوعب ما يعنيه من موضوع الرحيل والغياب الدائم.
سألته بإمكانك أن ترى عائلتك ثم تعود؟
كنت أكرر الكلام ذاته.
من دون أي ردة فعل إيجابية منه.
أو ماذا تقصد الرحيل أتعني الفراق فيما بيننا يا يعقوب؟
وضع يعقوب رأسه بين كفي، وهو يبكي، وعيناه تائهتان في وجهي ووجعي.
اصغي جيداً يا انجي: لما سأقوله لك.

أنا لست أقل منك ألماً، لكن القدر وقف بقوة بوجهي، ولا بديل لي الآن سوى هذا القرار الذي صدر على الرغم عن إرادتي، بعد أن أوصدت كلّ أبواب الحياة أمامي وخلفي بقوة وعنف، وما خيار آخر إلا العودة إلى دمشق.

بقيت قرابة الساعتين، وأنا أحاول أن أقنع يعقوب بالعدول عن قرار الرحيل، إلا أن القرار قد اتخذ مسبقاً ولا عدول عنه.

بابتسامة جافة وقلب متصحر لملمت أغراضي وأسرعت إلى سيارتي، تاركة ورائي ذلك الحلم بقلب محطم يعانق الريح، وتلك الذكريات التي ستصبح بعد وقت قصير من الماضي.

عند عودتي إلى البيت، لم أرَ أحداً في انتظاري كما هو المعتاد عادة، صعدت إلى غرفتي، و بقيت أبكي لساعات ثم من دون أن أشعر غفوت، و الدموع تملأ وسادتي حزناً وألماً، شعرت بأن قلبي انفطر إلى نصفين.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي على صوت المنبه، وأنا أقاوم النوم بكلّ طاقتي، رفعت رأسي عن الوسادة، كنت أشعر بثقل كبير، فتحت عيوني بصعوبة لأتفقد هاتفي لعل أحداً اتصل بي ليلاً، أو أن تكون هناك رسالة ولو واحدة من يعقوب بأنه عدل عن قرار الرحيل، و لكن كالعادة لم أجد من تذكرني، كان جسدي يتملكه الألم والإحباط.

لم أعد أرغب في شيء من هذا العالم، ولم يعد يتملكني الحماس والفضول بالذهاب إلى أي مكان.

بقيت في سريري بإحباط شديد والدموع تغرق وسادتي حسرة وألم.

ثم بعد قرابة نصف ساعة على موعد استيقاظي، دخلت السيدة جانيت تحمل كوباً من القهوة وقطع من الحلوى بالشوكولا.

كانت تخاطبني بشيء من التفاؤل والسرور.

لماذا تلميذتي المجتهدة ما تزال في سريرها؟

هيا استيقظي يا حلوتي.

على الفور طلبت منها المغادرة وأن تتركني وشأني، ولكنها لم تصغي لما أقوله وأصرت على فتح الستائر والنافذة ليدخل منها ضوء الشمس والهواء الدافئ العليل.

كانت تردد قائلة: إن السيد مروان ينتظرك في صالة الطعام على الفطور، هيا تحركي بسرعة يا إنجي سيغضب منا كثيراً إذا تناول الطعام لوحده.

لا أعلم لماذا، حينما يذكر اسم السيد مروان أمامي أو على مسمعي يصيبني الإرباك والذهول.

كان يتملكني واجب تجاه هذا الشخص بالقبول بأي أمر يصدر من خلاله، أو يجب على تنفيذ كلّ ما يتعلق به في الحال.

كنت أرى نفسي كأي عسكري يجب أن ينفذ الأوامر العسكرية، ثم إذا أراد الاعتراض ينفذ ثم يعترض.

على الفور تحركت من على السرير ثم تناولت كوب القهوة التي أحضرته السيدة جانيت، وذهبت إلى غرفة الطعام، لأجده في انتظاري كالعادة في نفس التوقيت الصباحي.

تبادلنا الحديث أنا والسيد مروان، عن برنامج العمل اليوم وما سنقوم بعمله طوال اليوم.

لكن كان كلّ عقلي وجلّ تفكيري ينصب في مكان آخر خارج غرفة الطعام، وحديث السيد مروان وخارج حدود القصر والكون كلّه.

كان أمام ناظري صورة يعقوب، واللحظات الأخيرة عند لقائه، وطعنات الغدر والفراق الذي تسببه يعقوب بحقي.

ثم اعتذرت من السيد مروان على تصرفي الأخير، بعدم ذهابي معهم في ليلة أمس إلى الصيد.

أجابني السيد مروان بألا أهتم لما حدث وتمنى عليّ بعدم تكرار ما حدث مرة أخرى.

هززت برأسي، ثم طلبت منه بأن أغادر إلى الجامعة وأكملت يومي الطويل بين الطلاب والمحاضرات علّ وعسى أن أنسى يعقوب وما فعله بي، وخاصة أني لم أكن أرغب أن ألفت انتباه أحد إليّ، لا في المنزل أو الجامعة رغم الألم الذي كان يدمي فؤادي، أو بما أشعر به من إحباط وخيبة أمل، شعور بالأسى واليأس، قررت أن يكون انفصالي عن يعقوب سراً خاصاً بي أنا وحدي، أتألم به بصمت لوحدي بيني وبين نفسي، وأضيفه إلى باقي الآلام التي يجب ألا يعلم بها أحد.

بينما كانت نظرات "مارغوا" وصلاح تلاحقانني طوال اليوم والوقت، إلا أنيّ كنت أتجاهل أي حديث يجرني إلى الكلام عن يعقوب.

حاولت "مارغوا" أن تستفسر عن الأمر، أو أن تعرف ما الحديث الذي دار بيني وبين يعقوب وما جعل من عينيّ منتفختين وحمراوين.

إلا أنني كنت أتجاهل نظراتهم أو التقرب منهم، والحديث بأي موضوع يخص علاقتي بيعقوب، في حينها كان تجاهلي للجميع مقصوداً، أو خوفاً من أن ألفت نظرهم بشكل عام، أو كلّ ما كان يحاول معرفته، لأن الأمر بكلّ بساطة إذا بدأت في الحديث عما فعله يعقوب بي، سأصاب بنوبة بكاء شديدة، تجعلني عرضة لعدة تساؤلات تخص علاقتي بيعقوب وحينها أصبح حديث الساعة من قبل جميع طلبة الجامعة، لذا فضلت الصمت والكتمان أو بالأحرى التجاهل، وانشغالي بتحضير المحاضرات بأي طريقة كانت.

من بعد الظهر ذهبت إلى مكتب السيد مروان في وسط المدينة، وبقيت معه طوال فترة ما بعد الظهر نرتب أوراق عمل للشركة الجديدة التي يريد التعاقد معها، ولكن وجه يعقوب كان محفوراً داخل عقلي، وأمام ناظري لا تغيب صورته عن خيالي.

بقيت مع السيد مروان في الشركة إلى المساء، ثم ذهبنا إلى الاجتماع المبرم مع الشركة وبقينا معاً إلى قرابة منتصف الليل.

على مدار شهرين كاملين، كنت أعمل بكلّ طاقتي، في أي شيء يمر أمامي، من دون أن يطلب أي أحد مني فعله، حاولت بكلّ جهد ألا أنفرد بنفسي لو لثانية واحدة، كنت أتجاهل النظر في المرآة، كان كلّ ذلك الجهد بالانشغال والتعب كي لا أتذكر يعقوب أو أصاب بالانهيار في أي لحظة، كان العمل

والدراسة وإنجاز الكثير من المشاريع التي كنت أقوم بعملها، هو الأمر الوحيد الذي ساعدني على تخطي المحنة، أو الانهيار النفسي، أو الوقوع في المرض أو كي لا أستسلم للحزن بالتفكير طوال الوقت بيعقوب وتخليه عني بين ليلة وضحاها.

بعد قرابة الشهرين ونصف من انفصالي عن يعقوب، وتخطي قرار رحيله عني بصعوبة بالغة، كان اليوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر "نوفمبر" لعام خمسة عشر وألفين.

استيقظتُ في الصباح على صوت المنبه كالعادة، وأنا أقاوم النوم بكلّ ما أملك من جهد وقوة، رفعت رأسي عن الوسادة بكسل شديد، كنت أشعر بثقل كبير في رأسي، فتحت عينيّ بصعوبة لأتفقد هاتفي لعل أحداً ما اتصل بي، أو قد يتذكر أحد أن يتصل، أو يرسل لي برسالة اطمئنان، و لكن كالعادة لم أجد من يتذكرني، لأدرك بأن الجميع مشغول بأموره الخاصة، كان جسدي مخدراً من سهرة ليلة البارحة مع السيد مروان والمدير التنفيذ لشركة معادن الذهب، بتكاسل شديد كنت أحدق بالساعة المعلقة أمامي على الحائط التي تشير إلى التاسعة والنصف، لا أريد الذهاب إلى الجامعة في هذا اليوم.

ثم وقفت أجر جسدي بكلّ ثقلي لأقوم بتجهيز نفسي للذهاب إليها رغماً عني، وأنا أطلق تنهدات أعبر من خلالها عن غضبي وشعوري بالسأم والتعب، لا يزال تأثير المخدر من الشراب يسري بجسدي.

ولكن أحاول التغلب عليه، لا أعلم ما نوع ذلك المشروب الذي أتناوله خلال وجودي مع السيد مروان في البار.

خلال سيري نحو الحمام سمعت صوت السيدة جانيت تقول: صباح الخير آنسة ماري استمريت في السير وأنا أبحث عن مصدر الصوت في فضول، ثم سمعت من جديد أحدهم ينادي: هل أنت بخير آنسة ماري.

فتابعت السيدة جانيت الحديث:

هل علمتِ ما حدث؟

قالت: ماري للسيدة جانيت بقلق.

ماذا حدث؟

وعن ماذا علمت؟

تداركت الموقف وقالت بتوتر: لا شيء، سأذهب مضطرة للرحيل.

اقتربت من باب الغرفة، نظرت إليهما لأعلم ماذا يجري، رأيت السيدة جانيت متجهة صوب غرفتي، وهي تحرك كتفيها برفق ثم رحلت، سمعتها تُتمتم بهمس ثم صمتت وهي تحدث نفسها قائلة: لم أرَ ماري من قبل بهذه الحالة ورغم ذلك لا أظنها علمت بالأمر وما يحدث من ورائها، فإن عرفت لكانت حالتها أسوأ بالكاد هي تتمالك نفسها، التفتت السيدة جانيت، وسط الممر، رأتني أتكئ على حافة الباب.

صباح الخير آنسة إنجي.

رددت بصوت خافض وبتثاؤب وأنا أفتح فمي بقوة، صباح الخير سيدة جانيت، كيف حالك؟ من بعدها مباشرة سألتني: هل ستذهبين إلى الشركة اليوم بعد الجامعة؟

نظرت نحوها: لا، سأذهب إلى الجامعة فقط، فلست بحال تسمح لي بالذهاب إلى أي مكان آخر.

بدت ملامح القلق على وجه السيدة جانيت، وباطمئنان قائلة: لا تقلقي يا انجي ستكونين بخير في المساء عند عودتك من الجامعة سنكمل الحديث معاً، فلقد عثرت ماري على ابن أخيها المفقود، سألت السيدة جانيت وأين كان مفقوداً، فأجابت: سوف أخبرك بكلّ التفاصيل في المساء، ولكن ما أخبار "مارغوا"؟

أجبتها، لم أرَها منذ يومين ولم أتصل بها، ولكنها لم ترد على اتصالي أيضاً، ولم أرَها منذ اليوم الذي وعدتني باللقاء بها و لم تحضر.

توسعت عيناي وأجبتها في توتر: لماذا تسألين عنها؟

لاحظت السيدة جانيت بأني لست على ما يرام:

ولمَ أنت متوترة لهذا الحد؟

حاولت أن أستعيد صلابتي وقلت: لست قلقة أسألك فقط.

تعجبت من الموقف، وأسلوب السيدة جانيت في الحديث ولكنها لم تطلِ الحديث فأنا مُرهقة للغاية.

أعادت سؤالها: هل أنت بخير؟

هززت رأسي: أجل أنا بخير.

السيدة جانيت: يبدو أنك بحاجة إلى الراحة، يمكنك العودة في وقت باكر، أو تفضلين البقاء في المنزل؟

كانت حالتي الصحية سيئة للغاية ولا تسمح لي بالتفكير في الدراسة أو العمل، قررت أن أخرج من القصر والتنزه بالسير خارج أسواره، ثم وقفت عند حافة النافذة، ونظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم، وما هي إلا لحظات حتى بدأ المطر يهطل بغزارة.

تذكرت أول يوم لي في الجامعة، كان الجو ملبداً بالغيوم وما عدت إلى القصر، إلا وكانت ثيابي مبللة بقطرات المطر وأخيراً مرت ثلاث سنوات على دراستي في كلية الهندسة المدنية، ولم يبقَ سوى سنتين للتخرج..

ها هي السنين تمر ولا شيء يتوقف عند حاله كلّه يتغير.

عند خروجي من باب القصر، طلبت من السائق "مانويل" أن يتولى هو أمر القيادة، دخلت السيارة والقلق ينمو بداخلي، كان قلبي يخفق بسرعة ويرتجف، من دون أن أعلم ما سببه.

بعد قرابة ربع ساعة من مغادرة المنزل، نظرت عبر نافذه السيارة، وهي ما تزال تسير ببطء، لأن المطر، كان ينهمر بسرعة، لأجد شاباً وفتاة يدخلان إلى المطعم، دققت النظر بهما فأنا أعرفهما، ولكن الرؤية من زجاج السيارة مشوشة بفعل الأمطار.

ثم سألني السائق "مانويل" عن وجهتي.

آنسة انجي إلى الجامعة، أو إلى مكان آخر.
لكني كنت شاردة الذهن، ولا أفكر سوى في يعقوب وأين اختفى طوال الوقت.
فمن رأيته هو "صلاح ومارغوا".
حتى صلاح لم أعد أراه منذ أن رحل يعقوب إلى دمشق.
على الفور طلبت من السائق "مانويل" التوقف أمام المطعم.
اتجهت بسرعة كبيرة إلى داخل المطعم، لا أعلم لماذا هذه العجلة كنت في حينها.

هل أتوق في قرارة نفسي، لمعرفة أي شيء عن يعقوب، أم كانت هذه العجلة هي للهروب من قطرات المطر الغزيرة؟
أم هي لهفة الشوق ليعقوب؟
أو كي أجد صلاحاً وأسأله عن مكان يعقوب؟
لماذا هو الآخر مختفٍ عن الأنظار، ولم أجد إليه طريقاً أو وسيلة اتصال إلا وقمت بها للبحث عنه.
حتى على مواقع التواصل الاجتماعي، لم تعد صفحته موجودة، كنت نصف مبللة وقطرات الماء تتساقط من شعري عندما مسكت بطرف معطفه، أخبرني الآن يا صلاح عن يعقوب.

أريد أن أطمئن عليه فقط، أنا أعلم أنه في دمشق ولكن هل يعقل ألا يتصل بي للاطمئنان عليّ.

نظر إليّ صلاح بذهول وخوف، كأني وحش مرعب أحاط به، ثم نظر بوجه "مارغوا" التي انخفض رأسها نحو الأسفل.

أجابتني: "مارغوا" تعالي معي يا إنجي، اجلسي هنا.

نزعت يدها عني بقوة وعنف، وأنا أنظر إلى صلاح كي يخبرني بشيء عن يعقوب.

ثم ما لبثت "مارغوا" أن صرخت بوجهي بغضب.

لا صلاح، أو حتى أنا، أو والديه، ولا بيت خاله، يعرف أين يعقوب أو مكانه يا إنجي.

جميعنا نبحث عنه منذ أكثر من شهرين ونصف.

لم نجد له أي أثر، ولا نعلم هل هو بخير، أو أصابه أي مكروه.

شعرت كأني لوح من الخشب المتصلب جلست على الكرسي، بدأت أبكي وأنتحب والألم يعصر فؤادي، بقيت بلا حراك قرابة ربع ساعة و"مارغوا وصلاح" يجلسان أمامي في صمت مريب لا أحد يهمس بحرف.

ثم نهضتُ من على الطاولة، وتحركت نحو الخارج، لأعود أدراجي إلى البيت.

سألني السائق عند خروجي من المطعم.

تفضلي آنسة إنجي بالصعود.

لكني لم أكترث لكلام السائق أو لم أعد أرى أي أحد يمر من أمامي.

بقيت أسير في الطرقات وحدي لساعات طويلة حتى خارت قواي عن السير.

جلست إلى جانب جذع شجرة على أحد الأرصفة وبدأت أبكي من جديد.

لا أعلم في حينها لماذا كلّ هذا الحزن والأسى والبكاء؟

هل هذا الحزن على فراق يعقوب؟

أم على حالة الضياع التي تتملكني في هذه اللحظات؟

اقترب مني السائق "مانويل".

قائلا: لي هذا يكفي آنسة إنجي، ستصابين بالمرض إن بقيت على هذا الوضع. من الأفضل لك العودة إلى البيت.

نظرت بوجه "مانويل"، رأيت نظرات الحزن والشفقة على وضعي، وما وصلت إليه من انهيار، في أثنائها أدركت وبشكل قاطع أن السيد مروان هو وراء اختفاء يعقوب.

نظرت بوجه "مانويل" وطلبت منه أن يعيدني إلى المنزل.

كالعادة فتحت الباب السيدة ماري، ثم كانت في انتظاري السيدة جانيت.

حاولت أن تنزع عني ملابسي المبللة، رفضت أن تلمسني أو أن يقترب مني أحد.

شعرت حينها أن قلبي قد انفطر إلى نصفين ولا يمكن لأحد أن يشعر بما أشعر به بالإحساس المدمر للروح والأعصاب.

رغم كلّ الذي تعرضت له سابقاً في المشفى أو في ذلك القبو الذي كان تحت الأرض بين الجثث المتعفنة والأموات والجرذان، إلا أن هذا الشعور كان مختلفاً عن سابقه.

يبدو أن الحياة تحاول في كلّ مرة أن تضعني تحت الاختبار أو تذكرني بشعور الألم والعجز بشكل دائم ومستمر.

بقيت في سريري قرابة يومين، لم أرَ بهما أحداً، ولم يدخل أي شخص على غرفتي.

بعد مرور يومين أي في اليوم الثالث، من ذلك اليوم الكئيب، استيقظت كالمعتاد من نومي ونهضت من السرير وتوجهت نحو الحمام الفيروزي، بعد الانتهاء من الاستحمام بالماء الدافئ، سرحت شعري، وارتديت ثيابي، وتبرجت، ثم توجهت إلى غرفة الطعام.

كان السيد مروان والسيدة جانيت، يجلسان على طاولة طعام الفطور.

ألقيت عليهما تحية الصباح، من دون أي حديث يجري بيننا تناولنا طعام الفطور بصمت، ولا ينظر أحدنا بالآخر، ثم خرجت إلى الجامعة.

كأن كلّ الذي مر معي هو حلم مزعج، أو كما بدا لي بأنه يجب أن أتعلم كيف أخرج من الصدمات بنفسي بقوة وعزم.

أو كما يقال إنه تهديد مبطن، أو كأنها رسالة صامتة من قبل السيد مروان، أمور كثيرة صعب وصفها وبالنهاية هي مؤشر بأن أنسى يعقوب، أو ألا أحاول أن أقترب منه، أو من أي شخص آخر في هذا العالم، الذي صنعه لي السيد مروان بنفسه.

بعد قرابة أسبوع من تلك الواقعة، رأيت يعقوب في المقهى، والجميع حوله، يضحكون ويتهامسون فيما بينهم بفرح.

نظر إلي.. ثم تجاهلني بنظراته الحزينة.

لم أكترث له ولم أقترب منه، ليس غضباً أو كرهاً له، بل شعرت بالخوف عليه من السيد مروان أو من حراس المراقبة التي تحيط بي بشكل دائم.

بقيت أتأمله وأنظر إليه من بعيد، كمن ينظر للقمر في أعلى السماء في ليلة بدر مكتملة من دون أن يستطيع أن يمسكه أو يقترب منه، كان يعقوب ينظر حوله بعينيه الذابلتين خائفاً حائراً رغم الابتسامة الباردة المصطنعة.

تركت المقهى، وتوجهت نحو الخارج، لأخرج من باب المقهى وأنا تاركة خلفي قصة عشق بقلب محطم يعانق الريح والسماء.

كان جلّ ما أفكر به بتلك اللحظة، أو في قرارة نفسي، بأن أبتعد عن يعقوب وأدعه وشأنه، كي يعيش في سلام وأمان هو وعائلته بعيداً عني وعن الغموض الذي أعيشه في حياتي بكنف السيد مروان وعصابته.

كنت لا أريد أن أتسبب له بأي أذى آخر، فهو شخص رائع وجميل وذكي، يستحق أن يعيش حياة أفضل مع أناس ليس لديهم ماضٍ مجهول أو حياة صاخبة بالمفبركات والكذب المزيف كالتي أعيشها أنا في ذلك القصر الغامض مع السيد مروان.

وأنا أسير على الرصيف متجهة نحو كراج السيارات، شعرت بأحد يمشي خلفي، لم أكن أعلم أنه سيسير خلفي، ولم أكن خائفة بقدر ماكنت مستاءة من الألم الذي تسبب به ذلك البعد والجفاء، إني أكره أسلوب التلصص هذا.

كَتمت ضحكة طفولية حين تخيلته يتنقل خلف الشجيرات المنتشرة على جانبي الطريق بحذر، تمنيت لو أني لم أرَه.

أهو خائف مني؟

كان بودي فعلاً أن ألتفت للخلف ويتفاجأ أني أعلم أني أراه يسير خلفي، منذ أن خرجت من باب المقهى، أشير إليه بسبابتي الصغيرة، لقد رأيتك أظهر نفسك يا يعقوب، لقد اشتقت إليك، أضمه إلى صدري، أو حتى أقبله بقوة.

لكن ما كنت لأمتلك تلك الجرأة أو القوة في فعل ذلك، أو حتى وقتاً أضيعه مع هذا المسكين، لقد أخذ مني الوقت الكافي للإيقاع به في العشق، ثم جاء السيد مروان وأنهى الحلقة الأخيرة من مسلسل العشق الذي حلمت أن أعيشها بصدق مع رجل أكن له مشاعر وأحاسيس نبيلة.

بدأت أصنع حكاية وأحاديث بيني وبين نفسي تلهيني عن مشاعر المواجهة الحقيقية مع يعقوب وأضع حداً لهذا العشق الممنوع عليّ جملةً وتفصيلاً.

فأنا الآن على عجلة من أمري لدي اجتماع مع السيد مروان والمدير التنفيذي لشركة معادن الذهب، عليّ إذاً أن أصل إلى مكان الاجتماع بسرعة.

كدت حينَ أسرعت أن أتعثر بأقدامي حين سمعت صوتاً يأتي من خلفي.

إنجي لحظة من فضلك، فقط هذه المرة امنحيني بعض الوقت، انتابتني الدهشة وتسمّرتْ أقدامي في الأرض، يريد بعض الوقت إذاً، لا يريد شيئاً آخر هذه المرة، كما في عرض الأفلام والمسلسلات أو كما تحكي القصص، استدرت، وهالة منظره النحيل وآثار الحزن عليه، حدقّتْ فيه وأرعبني هزال جسده، ونحالة قوامه الجميل، كانتْ أضلعه واضحة تكاد أعدها.

أغمضت عينيّ للحظة، حاولت أن أطرد من ذهني منظره الداعي للرثاء، لكن غلبتني العاطفة، وقفت بحذر، أبهجني منظر أحد يعشقني بهذا الجنون، كاد الدمع ينفر من عينيّ ألماً وحسرة على حاله.

ماذا تريد يا يعقوب؟

همست بتعاطف واضح.

نعم لو سَمحتِ، قالها بصوت باكٍ.

حسناً، لحظة واحدة أخرى فقط، هكذا إذاً ماذا تريد أن تبرر أسلوبك الساخر الرخيص مني، وكلّي علم بأنه لا ذنب له بكلّ ما حدث، خوفاً عليه من نهاية مؤلمة من السيد مروان.

سرعان ما بدأ يفرغ ما في جعبته من آلام الروح التي اجتاحته عند غيابه وتركه لي بتلك الليلة، وكلّ كلامه مبطن يدل على شخصية أخرى غير مفهومة يبدو أن السيد مروان لقنه درساً لن يعاد مرة أخرى.

وحالما انتهى من كلامه، غاب عن نظري ولم أعد أراه منذ ذلك الوقت، غاب عن نظري بسرعة وهو يدرك أنه لا أمل لنا من اللقاء مره أخرى.

في اليوم التالي كنت قد اتصلت "بمارغو" للقاء بها بعد الانتهاء من محاضرات الجامعة عند تمام الساعة الثالثة من بعد الظهر في مطعم "رويال لاند روفر"، كنت في توتر شديد من غياب يعقوب عني وكيف انتهت علاقة عشق دامت لأيام وشهور جميلة، عشت بها أجمل لحظات الحياة من صدق المشاعر وأحاسيس نبيلة كنت أكنها لشخص شعرت بالحياة والمتعة معهّ.

كنت في قلق مما حدث معي على آخر مرة رأيته بها.

لقد قلبت الأمر جيداً في عقلي وقررت أن أعود ليعقوب وأعيد ما فاتنا في الأيام الماضية وإذا كان السيد مروان هو سبب الانفصال سأفرضه عليه بالقوة.

أخبرتها عن يعقوب، وكيف كان يسير خلفي يوم أمس وبأنه ما يزال يحبني، سأحاول إعادة ما فاتنا من الأيام الماضية، ويجب عليها أن تعطيني عنوانه الجديد، سأذهب إليه أينما كان، فأنا لا أستطيع أن أنساه وهناك نار تشتعل في صدري يجب أن أراه وأعيد كلّ شيء بيننا، رأيت علامات التعجب والاستفهام الظاهرة على ملامح وجهها بالرفض بحزم مما كانت تسمع من حديث لا يمكن تداركه أو تصديقه، ترفع حاجبيها وتعقدهما وتزم فمها للأمام بكلّ بلاهة، نهضت من على طاولة الغداء، توجهت نحو الخارج، شعرت بصوت أقدام قوية كانت تتبع خطواتي بشكل أسرع صديقتي "مارغوا".

من الخلف شدتني نحوها من كتفي.

توقفي يا إنجي، لا تهربي من الواقع والحقيقة، عليك نسيان يعقوب.

يعقوب لم يعد يرغب بالاستمرار معك ولا يحبّك.

ولا يريد الاقتراب منك بعدما جرى له، وما حصل من أفعال وتصرفات معه لا يعلم بها سوى يعقوب.

عدت إلى الطاولة من جديد وغصة خانقة تعصر حنجرتي لا أريد إثارة الريبة والجدل في المطعم أمام الناس، وأنا أعلم أني مراقبة بكلّ خطوة أخطوها من رجال السيد مروان.

وضعت يدي على فمي كي لا تظهر ملامح الحزن والبكاء على وجهي أتعلمين يا "مارغوا"، نحن في زمن النفاق، لكن يبقى الصدق هو النفق الوحيد الذي

تصل به إلى الناس الذين ضحوا بكلّ شيء لنبقى معهم في هذه الحياة المرة البائسة.

تظل الفتاة منا تتمنى أو تحاول أن تجد شخصاً يشبهها، أو يتحدث بلغتها كي لا يضيع العمر بترجمة روحها مع أشخاص صعب التقارب معهم بوجهات النظر، أو أن تسير وحيدة في هذا العالم من دون أن تجد أحداً يفهم لغتها، أو نظراتها، همساتها وتبرر للروح في كلّ لحظة أو ثانية، الانفعالات والإحباطات التي تواجهها بشكل يومي.

****

مفاجآت قاتلة

من علمك البكاء في الصمت، سيعلمك كيف تصرخ في العلن وعلى الملأ بأعلى صوتك.

في كلّ ليلة كنا نذهب أنا والسيد مروان، للسهر خارج القصر، لنعود في وقت متأخر من منتصف الليل، كان يأخذني معه إلى أماكن مختلفة وأكثر ما كنا نقصده، هي الحانات والملاهي الليلة والبارات التي يملكها.

لقد زرنا أنا والسيد مروان جميع الأماكن في جزيرة قبرص اليونان، وتركيا، وأكثر مكان أثار فضولي حينما زرنا كنيسة آيا صوفيا في تركيا، قبل أن تتحول من قبل الإخوان المسلمين، أو من قبل السلطة الحاكمة في تركيا إلى مسجد.

لفت انتباهي منذ لحظة مرافقتي للسيد مروان، بأنه كان يقدمني لجميع معارفه، على أني قريبته وأني شخصية خاصة جداً بالنسبة له، أو بأني بمثابة ابنته أو من أقربائه المقربين.

كان من أكثر الأمور استغراباً بالنسبة لي، في أول أيام لقائي بالسيد مروان بأن جميع من نلتقي بهم من غير العرب ومن جنسيات متعددة ومختلفة.

بقينا على هذه الحال قرابة عامين كاملين أو ثلاثة أعوام ونصف، حتى شعرت بأن السيد مروان هو الوحيد في هذا العالم الذي أعرفه وأثق به، لأنه

كان بالنسبة لي هو الوحيد الذي يقدم لي الحماية، وأجمل الأشياء التي تتمناها أي فتاة مهما كان شأنها، هذا كلّه عدا عن الحبّ الأبوي والأسري الذي كنت أشعر به تجاهه والرعاية والاهتمام الذي يفوق حد الوصف الذي حظيت به من قبله، إلى أن حدث أمر هام أربكني، وأعاد لي آلام الماضي بجراحه العميقة.

في إحدى ليالي أغسطس الحار لعام ستة عشر وألفين، عند تمام الساعة الحادية عشرة ليلاً كنت أنا والسيد مروان على وشك الخروج من باب الفندق الذي يملكه في منطقة شلالات كاليدونيا الجديدة، بالعودة إلى القصر في العاصمة نيقوسيا.

اقترب منا شخص بدا لي من اللحظة الأولى بأني أعرفه جيداً وقد التقيت به سابقاً.

عادت ذاكرتي إلى أقل من أربع سنوات مضت، على الفور تذكرت من هو، كيف على فتاة مثلي أن تنسى هذا الوجه بالذات وهو أول وجه رأيته حين استيقظت من تلك الغيبوبة، التي لا أعلم كيف حدثت معي في حينها.

كان هذا الشخص هو الدكتور مهند، ألقى السلام على السيد مروان، ثم نظر في وجهي، وتجاهلني كأنه لا يعرفني أو لم يراني في حياته.

ابتسمت له بذهول، وبنظرة حاذقة أطلت النظر به، فأنا متأكدة بأن هذا الرجل، هو الذي كان يشرف على علاجي عندما كنت في المشفى، أجل أنا

أعرف هذا الرجل جيداً ومتأكدة أنه الشخص الذي رأيته عندما كنت أتعالج في المشفى ولكن لماذا كلّ هذا التجاهل؟

في أثناء ذلك لم يبد الدكتور مهند، أي اهتمام يذكر، بينما التزمت الصمت وتجاهلته أنا أيضاً.

في أثناء طريق عودتنا إلى البيت سألني السيد مروان ما هو الشيء الذي عكر صفو تفكيري، وخطف لونك عند رؤيتك للدكتور مهند؟

على الفور سألته من أين تعرف الدكتور مهند؟

رد قائلاً: إنه معرفة قديمة وهو من أحد زبائن الفندق وبأنه يتردد دائما عليه.

بما أن السيد مروان، مالك الفندق، كان يتوجب عليه معرفة زبائنه، هكذا كان يجب أن أعتقد من كلام السيد مروان.

أجبته: إن الدكتور مهند هو من كان يشرف على علاجي عندما كنت في المشفى، ولم أرَه منذ ذلك الوقت، وآخر شخص رأيته عندما تم احتجازي واعتقالي في قبو المشفى؟!

بينما كانت إجابة السيد مروان بالنفي، أو بأنه قد يكون تشابهاً بالوجوه، صمت في أثنائها، ولم أطرح عليه أي سؤال آخر عن الدكتور مهند.

رؤية الدكتور مهند أعادت ذكريات وآلاماً قديمة، حملت معها مشاعر الخوف والغضب والهيجان الذي كنت أشعر به، حين رأيت السلاسل معلقة

ومقفلة بقدمي كأني حيوان مفترس، يقيدونه خوفاً من مهاجمتهم، أعاد الدكتور مهند ذكريات ما حدث معي عند احتجازي في أسفل ذلك المشفى بالقبو، تلك اللحظات التي رأيت به الدكتور مهند، أربكت مشاعري تركت ذاكرتي معلقة بين الماضي والحاضر، أسقطت في لحظتها، نعش الحياة في قفص مجهول لا أعلم كيف أنقذ نفسي منه.

وكيف لا أشعر بذلك الشعور والإحساس السيئ.

قد يكون الدكتور مهند على علاقة قوية بالسيد مروان ومفتاح حل اللغز الغامض، وخاصة أني ما أزال أتألم على فراق يعقوب، والوجع الذي تسبب به السيد مروان، ما حصل مع يعقوب وإبعاده عني.

رغم ذلك الإبعاد القسري، وجهلي سبب هذا الفعل الرديء المؤلم، الذي إذا دل على شيء يدل على شخصية أنانية من قبل السيد مروان، وتطفله على حياتي الخاصة.

أو هناك أسباب ومؤامرات خفية يخفيها عني السيد مروان، بأنه يحاول بكلّ استطاعته أن يبعد أي أحد يحاول التقرب أو الاقتراب مني، وخاصة أصدقائي، فلم يسمح لي ولا مرة واحدة أن أدعو أحداً منهم إلى القصر.

رغم أن "مارغوا" وصديقتي "ليليان" وأيضاً "ريبان".. حاولوا مراراً وتكراراً، زيارتي في القصر، إلا أن السيد مروان كان يرفض بشكل قاطع، أن يدخل أي أحد إلى القصر رغم محاولاتي المتكررة معه.

لا أعلم ما نمط هذه النرجسية المريضة التي يمتلكها السيد مروان ومن أين جاء بها، هل تكون مكتسبة بفعل تعامله مع جميع أصناف البشر، أم هي بالفطرة وموروث جيني يحمله في دمه الأزرق.

ما أزال أشعر بالغضب الشديد في أعماقي، منذ رحيل يعقوب عني، وخاصة آخر مرة رأيته بها، حين كان يسير خلفي بين الأشجار وينظر لي من بعيد ويسترق النظر، كان أكثر ما يؤلم أن ترى من تحبّه أمامك وتدعه يرحل رغماً عنك.

لقد تخطيت تلك المحنة بصعوبة، رغم الألم الذي لازمني منذ رحيله، أظهر أمام الجميع بأني أعيش السعادة بكامل مقوماتها، إلا أن جرحاً عميقاً بداخلي لا تدمله السنين، حتى تركت أثراً قاسياً، من الصعب نسيانه إلى حد الآن من تلك الأيام التي مرّ عليها عامين.

عند رؤية الدكتور مهند وتقربه من السيد مروان، أثار الفزع في داخلي وأوقد الجمر الذي لن يطفأ إلا بمعرفة ما هو الرابط الخفي وراء هذا السلام الحار.

في حينها فقط قررت بوضع خطة محكمة، كي أعرف كلّ التفاصيل الصغيرة والكبيرة عن السيد مروان، وما هذه العلاقات المتشعبة بينه وبين هؤلاء الأشخاص، الذين نجتمع معهم بحجة العمل وعقد صفقات وشراكات.

وأكثر ما كنت أريده، أن أعرف حقيقة السيد مروان وكيف جاء إلى قبرص هو وعائلته وعائلتي، كما أخبرني في أول لقاء بيننا.

لم أستطع أن أنام تلك الليلة، ازداد القلق والتوتر، ليتملكني الظن والشك، بأن الدكتور "مهند" يعرف الكثير عني، وسر حياتي الماضية عنده بالكامل.
في حينها مضى أسبوع، ولم أذهب إلى الفندق، تذكرت ما فعله السيد مروان مع يعقوب، أو قد يكون وضعي تحت المراقبة من جديد.
لذا فضلت تجاهل وتأجيل موضوع اللقاء بالدكتور مهند لفترة وجيزة، وعدم إثارة انتباه السيد مروان أو السيدة جانيت، بالذهاب عن قصد إلى الفندق لمقابلته.

بعد مرور بعض الوقت على اللقاء الأخير مع الدكتور "مهند" ومضي الفترة الوجيزة، شعرت بأنه حان وقت معرفة الحقيقة والسر الغامض الذي يخفيه الدكتور مهند. لذا طلبت من السيدة جانيت، الذهاب إلى الفندق بحجة أن هذا الفندق مكان مريح ومرفه، عدا عن ذلك قد بررت لها، أن تلك المنطقة أصبحت من أجمل الأماكن المحببة لي على الإطلاق.
كان كلّ ذلك بأمل أن ألتقي من جديد بالدكتور مهند.
ظل قرار ترددي على ذلك الفندق بشكل مستمر.
حتى أن السيد مروان بدأ يتساءل عن سبب اهتمامي بذلك المكان.
كنت أقول له: إنه من أجمل الأماكن في قبرص، ورؤية شلالات كاليدونيا تخطف الأنظار، وهي تعتبر واحدة من أجمل المناطق السياحية في جزيرة

قبرص، حيث تقع في أعلى جبال ترودوس الخضر، تسقط المياه من أعلى ارتفاع اثني عشر مترا.

شلالات كاليدونيا محاطة بغابة خضراء ومناظر غاية في الروعة تخطف الانفاس.

أجابني السيد مروان بذهول على مهل يا إنجي ما هذا الحماس الشديد، للذهاب إلى هناك، كأني أسمع منك درساً عن التضاريس في كتاب الجغرافيا.

سأدعك تسافرين إلى هناك ولكن سترافقك السيدة جانيت وتبقى معك إلى أن تعودي.

أخبرته بأن لا مانع عندي من مرافقة السيدة جانيت، ولكن هل أستطيع أن أصطحب أصدقائي معي "ريبان وجامي".

هز برأسه مبتسماً، خذي من تريدين معك يا عزيزتي إنجي المدللة، واقضي أجمل الإقامة في ذلك الفندق الراقي وتمتعي بمناظره الخلابة، فلك ما تريدين.

استكملت باقي حديثي معه، وأنا أمتدح الفندق، وتصميمه، ومناظر الغابة الخلابة، التي تشدني إليها باستمرار حتى أنني أخبرته أني أفكر أن أقيم هناك بشكل دائم، وكلّ ذلك ممازحة له حتى لا يشك فيما أفكر به، أو بأني أود أن ألتقي بالدكتور مهند.

ذهبت أنا والسيدة جانيت ودعوت "ريبان" وصديقتي "جامي" معي للإقامة هناك، إلى أن شاءت الصدف بعد صبر طويل لعدة أيام قليلة، أن اقترب أحدهم من طاولة الموظفة يسألها عن رقم غرفة مئة وستين، كان ذلك الشخص الذي يسأل عن الغرفة هو الدكتور مهند.

حفظت الرقم ثم انتظرت قرابة خمس إلى عشر دقائق وصعدت إلى تلك الغرفة.

طرقت باب غرفته بتوتر وخوف ويدي ترتجف، انحرفت نحو يمينه، كي لا يراني أمامه مباشرة عند مدخله، ظناً مني إذا رآني قد يرفض مقابلتي.

حينها كان كلّ شيء متوقعاً في ذلك الوقت.

عندما تم فتح باب الغرفة دخلت بسرعة.

ابتسم مستغرباً من لقائي، مردداً بفرح أهلاً وسهلاً آنسة إنجي، وأخيراً التقينا يا آنستي.

بادرته بابتسامة هادئة مبطنة بالحيرة من هذه الابتسامة، الساخرة، والسلام الحار.

ثم سألني هل أنت بخير؟

أجبته: باستغراب رداً على سؤاله، في الحقيقة لا، لا أعلم إذا كان كلّ شيء على ما يرام جميع الأشياء من حولي غامضة، ومكسورة بطريقةٍ ما.. وأريد تفسيراً عن كلّ ما أشك به؟

هامت في رأسي، عبارة مغيبة.

بأني فاقدة للذاكرة، لا أتذكر أي شيء عن حياتي الماضية.

سألني باستفهام.

هل حاولت أن تتذكري أو تزوري عيادة طبيب مختص يساعدك على إعادة ذاكرتك؟

أجبته بسخرية وكيف أستطيع أن أجد وقتاً لأتذكر أي شيء، أو أزور أحداً، الوقت عندي مكتمل منذ الصباح حتى المغيب.

ثم رددت بيني وبين نفسي، كيف أستطيع أن أجد وقتاً لزيارة الطبيب، والسيد مروان وضعني تحت برنامج لا أستطيع أن أتنفس به ولو للحظة واحدة إلا عند النوم فقط.

هز برأسه وقال: حسناً كنت أعلم أنك لا تستطيعين أن تتذكري ما حدث معك قبل مجيئك إلى قبرص.

إذاً أنت يا دكتور مهند، تتجاهل نظراتي أو الاقتراب مني، وتحاول ألا تلتقي بي.

لماذا كلّ هذا التجاهل؟

أجابني وهو يسير أمامي نحو الداخل في غرفته، يجب عليك أن تتعلمي الحذر الشديد مما هم حولك يا إنجي، وأعيد وأكرر، من الواجب عليك أيضاً الحذر، وبأنك الشخص الوحيد الذي سيساعدنا في كشف حقائق، وأمور سرية يحتفظ بها السيد مروان في قصره المحاط بالحرس من جميع الاتجاهات.

جحظت عيناي به بدهشة وارتباك، عما يدلو به من الحديث الفج الصريح، وخاصة أني ألتقي به منذ لحظات معدودة فقط.

ما هذا الأسلوب الفظ الذي يخاطبني به؟

وكيف لي أن أسمح له بأن يتحدث بهذه الطريقة الاستفزازية عن السيد مروان؟

هل تعلمين أنك تعيشين في أقدم قصر في قبرص يا إنجي؟

وقد استولى عليه السيد مروان عن طريق مؤامرة حقيرة أو صفقة ابتزاز، كما يقال أو حدث.

ثم أمسك بيده علبة سجائر حمراء، وسألني هل ترغبين بالتدخين، أشرت له بيدي بالرفض وأني لا أدخن، كان يشير بيده إلى زجاجة من النبيذ الأحمر.

قائلاً: هل ترغبين بالتدخين أو أن تشربي أي مشروب تفضلينه.

مستكملاً طلبه فأنا أفضل أن أشرب " كومان داريا.."

بينما كان قد أمسك بيده زجاجة أخرى من النبيذ الأحمر ووضعها أمامي على الطاولة.

بقيت صامتة أنظر بوجهه بتوتر شديد، فاتحة فاهي بذهول كأني أشاهد جريمة قتل تحدث أمامي لأول مرة.

السيد مروان يا إنجي، قام بخطف ابنة صاحب هذا القصر والذي كان شريك السيد مروان في المشروع السكني في نيقوسيا، كانت تلك الفتاة المسكينة، بعمر الخمسة عشر ربيعاً، قام بابتزاز والدها وعائلتها، عراها أمام عائلتها

عبر شريط بث مباشر، أمامها خمس شبان جاهزون لاغتصابها ما كان على أبيها إلا بالقبول لأي شرط يضعه السيد مروان مقابل تحرير ابنته من الخطف والاغتصاب، والتنازل له عن هذا القصر الكبير، وبعد أن أفلست العائلة، والصدمة التي أصابت الفتاة الصغيرة وعائلتها، قرر الأب أخذ ابنته مع جميع أفراد عائلته، وهاجر بهم إلى كندا، لأنهم بكلّ بساطة، أصبحوا مهددون، ولا يملكون أي شيء في قبرص.

هناك أمور خطيرة جداً يا إنجي، عليك معرفتها بنفسك، وأستطيع أن أثبت لك صحة ما أقوله، عن أعمال السيد مروان غير القانونية وغير الشرعية، وأعماله الإجرامية.

نهضت من مكاني وأنا متصلبة مثل لوح جليد، مصدومة مما كنت أسمعه من أحاديث غير مفهومة أو غير إنسانية على الإطلاق، عما يفعله رجل بمكانة السيد مروان.

ثم طلبت من الدكتور مهند أن يثبت صحة ما يتحدث به بالبرهان القاطع عن تورط السيد مروان في تلك الأعمال المشبوهة.

نهض من مكانه، مشى قليلاً، ووقف خلف طاولة صغيرة في زاوية الغرفة، وأسند كوعه بكبرياء وتحدٍ، مخاطباً إياي بشيء من الاستغراب والضحك بعض الشيء.

حسناً لا تستعجلي كثيراً، أمامنا الوقت الكافي لتكتشفي كلّ شيء بنفسك، وبالبرهان القاطع كما تطلبين، عن السيد مروان ومن يتعاون معه يا آنسة إنجي.

ولكن لا يوجد أحد يستطيع مساعدتنا إلا أنت، إذا أردت معرفة حقيقة من تكونين وتعودين إلى كنف عائلتك الحقيقية في منطقة المهاجرين بدمشق، يجب عليك الوثوق بنا والعمل معنا.

وأيضاً ستقودينا لمعرفة من يدير تلك الشبكة التي يعمل بها السيد مروان.

لم أكن أصدق ما كنت أسمعه في حينها.

وهل أنا أمام حقيقة مما أسمع أم أنها فبركة من قصص الرعب التي أشاهدها في أفلام السينما؟

كلما كان الدكتور مهند، يتحدث عن أعمال السيد مروان الإجرامية، كنت أشهق كالغريق في بركة ماء تسحبه نحو الأسفل.

أجبته: هكذا وبكلّ بساطة تطلب مني أن أساعدك؟

كيف لي أن أصدق هذا الكلام الذي تحدثت عنه الأن؟

ما هو دليلك على صحة ما تخبرني به؟

وأيضاً هناك أمر أكثر خطورة مما تقوله الآن، أين كنت حينما طلبت منك أن تساعدني وتطلق سراحي، وهم يجرونني مثل الجرو في ممر المشفى؟

ليتم احتجازي في غرفة بين الجثث المتعفنة والميتة ولم تحرك ساكناً أو حتى تقدم لي المساعدة والعون.

كيف لي أن أثق بشخص تخلى عن فتاة مريضة وفي أشد الحاجة للرحمة والشفقة، في ذلك الوقت؟

لا أستطيع تصديقك أو حتى التعامل معك أنا أعتذر منك يا دكتور مهند، أنت تخليت عني في أشد الحاجة إليك، في الوقت الذي جاء به السيد مروان وأنقذ حياتي من الموت والهلاك، وعدا عن كلّ ذلك قدم لي أفضل شيء في الحياة الرعاية والاهتمام والعلم وكلّ شيء تحتاجه أي فتاة في أبسط حال من الحالات الذي كنت عليه.

وأنا الآن قد ترفعت على السنة الرابعة بكلية الهندسة المدنية ولم يبقَ أمامي سوى هذا العام والعام القادم على التخرج.

اقترب مني مخاطباً إياي بشيء من الاستهزاء، وما فائدة تلك الشهادة مع اسم مزيف وليس باسمك الحقيقي بل اسم اخترعه لك السيد مروان، وعمل منك شخصية وهمية ليدير أعماله المشبوهة بمسميات مختلفة.

لم أكن أصدق أي كلمة مما كان يقولها لي في حينها محاولاً إقناعي بأنه لا ذنب له بما حصل معي في تلك الليلة، ومن الواجب مساعدته هو ومن يعمل معه، مبرراً بأنه حينما تم اعتقالي من قبل هؤلاء الرجال، طلبوا منه أن يبقى في الغرفة وممنوع أن يخرج إلى أن يختفوا، ولم يكن يعلم إلى أين ذهبوا بي، لأن الأوامر تحتم حجزه أيضاً، خوفاً من فضح أماكنهم السرية، لأنهم في حالة الطوارئ القصوى، يجب أن يبقى بالغرفة مع الممرضة بينما

يختفي إثر سماع صوتي، ولم يعد يسمع أي صوت بالخارج، في حينها تم السماح لهم بالمغادرة.

ظلّ يؤكد لي بأنه حاول مراراً وتكراراً معرفة إلى أين ذهبوا بي ولكن عجز عن معرفة أي تفاصيل في ذلك الوقت.

كان الدكتور مهند يتكلم بخوف شديد.

لماذا لا تصدقين يا انجي بأني مراقب من قبلهم وعلى مدار الساعة؟

لا أستطيع حتى هذه اللحظة، الكشف عن حقيقة أمري.

سيتخلصون من كلّ شخص يحاول اقتفاء أثرهم، إذا عرفوا بأن أحداً على دراية بأعمالهم المشبوهة، سيتم التخلص منه على الفور، هو وعائلته ولم أكن على دراية بالأعمال التي تدار في ذلك المكان، لذلك ليس أمامي أي خيار سوى التعامل مع الموضوع بكلّ سرية.

أتعلمين كيف يتخلصون من الشخص الذي يغدر بهم يكون طعاماً للتماسيح، والأفاعي القاتلة.

أما الآن فقد حصلنا على معلومات كافية تدين كلّ شخص متورط في عمليات الاتجار بالبشر والأعمال المشبوهة التي تدار من قبل هؤلاء الأشخاص، وأنا على تواصل مع المختصين لكشف هذه العصابة ومن يديرها من أكبر رأس إلى أصغرها في هذه الجزيرة.

ضحكت من جديد بشيء من السخرية والاستهزاء مما قاله، أنت تقول لا أحد يعرف من يديرهم والآن تناقض كلّ الكلام السابق.

ثم شعرت بصداع رهيب، في رأسي فطلبت منه أن أغادر إلى القصر ثم عندما كان يودعني قبل أن يفتح الباب أخبرته إذا رفضت التعامل معك كما فعلت أنت ماذا سأكسب أنا من مساعدتي لك.

أخبرني بصوت خافض وهو يضع يديه خلف ظهره وبكلّ ثقة.

أنا أعرف هويتك الحقيقية ومن تكونين أنت وزميلتك التي رأيتها عند استيقاظك من المخدر أتذكرين تلك الفتاة الشقراء صاحبة الضفيرة الطويلة.

كانت هناك في غرفة العناية المركزة عند استيقاظك على كرسيها المتحرك، وقد تم خطفك أنت وهي أمام موقف الباص حينما كنتما في طريق العودة إلى البيت.

لا أعلم لماذا لم أتذكر وجهها ولم أتذكر عندما كنت أمام موقف الباص.

ثم عدت من جديد إلى داخل الغرفة وجلست في مكاني وبدأت أسمع، ما يقوله عن حياتي الماضية وكيف تم خطفي ونقلي إلى قبرص.

كانت عيناي تذرفان الدموع، من دون أن أشعر، ولا أصدق ما كنت أسمعه.

أخبرني: لقد تعرضت لحالة خطف أنت وزميلتك هديل عند موقف الباص خلال عودتكما من الجامعة.

كنتما في السنة التحضيرية الأولى بكلية الطب البشري، كانت عملية الخطف مخططاً لها بشكل جيد جداً، ومنسق بطريقة لا تدعو للشك أو

الريبة، ومفبركة ومركبة بحيث يتم تصديقها من قبل من يرى الحادث مئة بالمئة، وكلّ ذلك بالطبع بالتنسيق مع أحد الضباط الموجودين بالداخل.

سألته وكيف حصل هذا الأمر؟

من وراء عملية الخطف هذه؟

أمسك بيدي وضغط عليها بقوة، كانت يداه باردتين ويزداد تعرقاً، طوال مدة حديثه معي.

أمام باب كلية الطب البشري، في المزة بدمشق، كان يوجد عدة شبان يتعاركون فيما بينهم، كان السبب هو قيامهم بالتحرش بفتاة لا يعرف من هي في حينها، يتبادلون الشتائم وينهالون بالضرب على بعضهم البعض، وطبعاً الحادث كان مفتعلاً بشكل يبدو عفوياً وتلقائياً.

كان من وراء افتعال تلك المشاكل، بأن يتم التمويه عن عمليات الخطف، وتختلط الأمور، حيث تحدث فوضى عارمة، عندها فقط تنجح الخطة، والهدف المخطط له، من خلف هذا العراك، بأن يبدو هذا الشجار عفوياً وتلقائياً، حين يتم استدعاء الشرطة وتأتي سيارة حفظ النظام وتلقي القبض على المتشاجرين، فلن ينتبه أحد لأي شخص يستطيع أن يجبر أحداً على اقتياده لمكان الحجز عند مخفر الشرطة.

وكان من ضمن الخطة بأنه يتم استدعاء الشرطة في الحال، لفك النزاع بين المتخاصمين، أو الخلاف الدائر بين الشبان المشاركين بالعراك، وأيضاً الفتاة التي تسببت بافتعال ذلك العراك الدائر بينهم، و حين تأتي سيارة حفظ

النظام، تلقي القبض على كلّ المتواجدين في المكان، و طبعاً فقط الفتيات الصغيرات والشبان، الذين لا يزالون تحت سن التاسعة عشرة، أو من طلبة الجامعة.

تمثيلية ناجحة بشكل لا يدعو للشك فيها.

أثار كلامه الفضول عندي، وسألته في الحال.

لماذا فقط تحت سن التاسعة عشرة، أو طلبة الجامعة؟

رد ببساطة: لأنه أفضل عمر يمر بحياة الإنسان، الانتقال ما بين البراءة والنضج.

يريدون أعماراً صغيرة في السن، لكي يتحكموا بهم كيفما يشاؤون، فهؤلاء الفتية هم لا يزالون في سن الشباب المبكر، بالنسبة لهم هو أفضل عمر عند الإنسان، يكون جسد الفتى قوياً ويمتلك اللياقة والجمال.

حينها يختارونهم لتجنيدهم في منظمات إرهابية ومسلحة، أو الاتجار بأعضائهم أو بالدعارة، أو بغسل أدمغتهم والعمل على أن يكونوا ضمن برنامج تجسس لمنظمتهم ومصالحهم كمراقبين لهم على النشطاء في المجتمع المدني أو الحقوقيين.

لم أستطع أن أصدق كلّ ما كنت أسمعه من الدكتور مهند، أصابتني نوبة من الغضب والبكاء الشديد، هل يعقل ما أسمع وما مررت به كان أكبر دليل على وحشية هؤلاء الأشخاص.

ثم طلبت منه بترجٍ، أن ينقذني من هذا الوضع الذي أنا عليه حالياً، ويعيدني إلى بيت أهلي في دمشق.
فأجابني: حينها بأنه لا يستطيع عمل أي شيء من أجلي في الوقت الحاضر، لأنه فات الأوان على قدرته على مساعدتي.

السيد مروان، مع رجاله في كلّ مكان، وإنني مراقبة من قبلهم طوال الوقت، وإذا حاول الدكتور مهند، فعل ذلك سيؤدي تهريبي، إلى التخلص منه ويفقد حياته وحياة الكثيرين من الشبان والشابات الذين يتم إعادتهم لموطنهم، بعد وصلوهم إلى قبرص.
سألته كيف تستطيع إعادتهم لبلدانهم؟
ابتسم ببرود وبشيء من الحزن، في أغلب الأحيان عندما يصلون إلى تركيا ومن ثم إلى اليونان أو قبرص عبر البحر، يرسلونهم بشكل مباشر إلى عياداتهم السرية، ليتم استئصال بعض أجزاء من أعضائهم، كما حدث معك عند استئصال إحدى الكلى من جسدك، حسب ما يكون الطلب من شبكة بيع الأعضاء.
خلال النقاهة أو خلال تهيئتهم لتهريبهم، عبر البحر المتوسط إلى أوروبا أو أمريكا، يتم الكشف عن موعد انطلاق تلك الرحلات، وبالتعاون مع خفر السواحل، ليتم القبض على المهربين وإعادة المخطوفين إلى بلادهم.

في أغلب الأحيان تنجح المهمة، بينما في حالات أخرى يفشل أمر تخليصهم من الأسر، ويتم تهريب الفتيات والشبان ليكونوا في قبضة عصابات أخرى، من جنسيات مختلفة، ويكون مصيرهم مجهولاً.

فإذا كنت ترغبين، أن تكوني من ضمن الفريق الذي أعمل به لتخليص هؤلاء الأشخاص من قبضة هذه العصابة، باستطاعتك أن تساعديني في أمر واحد فقط.

سألته، ما هو ذلك الأمر؟

رد من دون تردد، بأن نكشف جميع أعمالهم الشريرة والحصول على الوثائق الأصلية الموجودة في حوزة السيد مروان.

سألته باستهجان واستغراب.

وكيف لي أن أحضر لك هذه المستندات المطلوبة، وأنت تخبرني بأنني مراقبة من قبل رجاله؟

فأنا الآن الأمر الوحيد الذي أفكر به، وفي أشد الحاجة إليه هو استعادة ذاكرتي.

اقترب نحوي وأمسك بيدي، مخاطباً إياي بنبرة حادة فيها العزم والإصرار، اسمعي يا إنجي أو أقول لكي باسمك الحقيقي "هزار" على اسم جدتك.

ابتسمت باستغراب، الآن أصبح لي اسم آخر ينادي لي به.

اسمعي يا إنجي، أنت فتاة شجاعة وذكية، لا يستطيع أحد مساعدتك، في هذا الشأن إلا بالاعتماد على ذاتك فقط.

أنت الوحيدة في هذا الكون الذي يملك مفتاح نجاتك من أي مكروه قد يلحق بك لاحقاً، عندها فقط، تستطيعين العودة إلى ذاتك وذاكرتك، وموطنك الأصلي والعيش مع باقي أفراد عائلتك.

سألته: وكيف يكون ذلك الخلاص؟

أنا إنسانة عاجزة حتى عن تذكر ما هو اسمي الحقيقي.

عندها تحرك من مكانه، واتجه خلف طاولة وأخرج من درج مكتبه بطاقة على شكل كرت ملون باللون الأزرق مكتوب عليه عنوان عيادة طبية، كان هذا العنوان لعيادة طبية مختصة بالأمراض النفسية والعصبية، فطلب مني في حينها، أن أزور تلك العيادة وقال لي: عليّ أن أسأل عن اسم الدكتور جورج، هو من يستطيع أن يشرف على علاجي..

ووصف لي عدة أمور يتبعونها الأطباء النفسيون في معالجة مرضاهم ثم أعطاني الرقم الخاص للطبيب المختص بالأمراض النفسية، قائلاً لي: يجب مراجعته، كي تحصلي منه على مساعدتك، في استرجاع ذاكرتك.

ثم أطلق عبارة قوية هزت كياني من الداخل، لن أنساها مدى الحياة.

اقترب نحوي، وأمسك بيدي، وهو ينظر بعيني وبهمس منخفض، قائلاً لي:

لا تتجاهلي نفسك يا إنجي، ثم تلومي غيرك على خداعك أنت الوحيدة التي تستطيعين أن تنقذي نفسك من هذا الكابوس قبل أن يفوت الأوان.

هناك العديد من الفتيات والنساء والشبان الصغار في مقتبل العمر بحاجة لك ولنا أيضاً لمساعدتهم وإخراجهم من تلك الدوامة.

أنت الوحيدة التي بيدها مفتاح أو حل هذا اللغز والأرقام والرسائل المشفرة، التي يستعملها السيد مروان وشبكته الإجرامية.

ما عليك سوى أن تكشفي أمرهم.

أجبته حسناً إذاً، ما هو المطلوب مني بشكل واضح وصريح؟

يبدو أنني أنحدر نحو الهاوية والغباء.

خاطبني حينها بهدوء وتروٍ، لا أنت لست غبية ولا تنحدرين نحو الهاوية، وضعك أفضل من آلاف الفتيات والشبان الذين تم خطفهم أو التغرير بهم وإخداعهم، وفقدوا حياتهم.

ما عليك يا إنجي، سوى أمر واحد فقط، هو أن نتبع خطة متقنة بشكل جيد وصحيح حتى لا نقع في الغلط ونكون مصيدة لهم.

سألته وما هي تلك الخطة؟

أجابني: بأن أدعي المرض والاكتئاب أمام السيد مروان وأنك بحاجة لزيارة عيادة الطبيب النفسي، ويجب عليك أن تخبري السيد مروان بكلّ ما يجري معك عند عيادة الطبيب كي يبدو لهُ المشهد أو الموضوع، يمرّ بشكل عفوي وتلقائي.

عليك أيضاً أن تجعليه على اطلاع بمعرفة مواعيد زيارتك للطبيب، وكلّ ذلك ضمن خطة محكمة بشكل جيد، يجب أن تبرري أفعالك أمام السيد مروان، وسيخبرك الدكتور جورج بكلّ ما ستفعلينه، بينما نحن نحاول

بكلّ استطاعتنا كشف أمر حقيقة عمل السيد مروان الإجرامي، ومن يتعاون معه، قبل أن يقوم بأذيتك.

والأمر الأهم من كلّ ذلك، طلب مني الدكتور مهند، بأن أبقى محافظة على الحرية التي أتمتع بها، والتي منحها لي السيد مروان بالتفسيح والتبضع، وزيارة الأماكن والمقاهي التي أزورها باستمرار، وأن أقوم بأعمالي اليومية بشكل عادي جداً وطبيعي، وكأن شيئاً لم يكن.

كلّ هذا التظاهر يجب أن يتم مع العمل على استعادة ذاكرتي، ونقل كامل المعلومات السرية عن السيد مروان، ومع من يتصل أو يلتقي به.

والأمر أكثر خطورة من كلّ ما طلب مني من قبل الدكتور مهند ومن يعمل معهم، بأن أدخل مكتبه، وأخرج جميع المعلومات بالملفات الخاصة به من الخزنة الموجودة بها في غرفة نومه أو مكتبه، وأن ألتزم بكلّ التعليمات التي تتطلب الحيطة والحذر، بدل أن يتم التخلص مني من قبل السيد مروان أو شركائه، والقيام بقتلي أو اعتقالي مرة أخرى ورميّ في أي سجن من سجونهم السرية التي لا أحد يعرف مكانه، أو أن تتهمني السلطات القبرصية بالتعاون مع تلك الشبكة الإجرامية.

سألت الدكتور مهند

وبما أنك تعلم كلّ شيء عن السيد مروان، ومن يعمل معه.

لماذا لا تعتقلونه هو ومن معه وتخبر السلطات عنه؟

رد على سؤالي، وهو يضع رأسه بين كفيه، كما النعامة التي تغمر رأسها في التراب، خوفاً من عدم معرفتها بما يجري حولها، وبما إني إنسانة واقعية لا تهتم بنظريات المؤامرة أو إشارات الجسد، لم أستطع في حينها تصديق ما يقوله لي عن السيد مروان ومن معه.

بدا لي المشهد في بداية الحديث، بأن الدكتور مهند لا يريد أن يكشف كلّ أوراقه أمامي، أو أنه يخشى بأن أقوم بالإبلاغ عنه للسيد مروان وافضح أمره أمامه، أو أنه يعمل لجهة أخرى منافسة لعمل السيد مروان ويريد هو ومن معه التخلص منه عن طريقي.

كيف لي الآن أن أثق بكلا الطرفين؟

شعرت حينها بأني وضعت نفسي في ورطة كبيرة قد أكون في غنى عنها، أو أن ما أخبرني به السيد مروان حقيقة والدكتور مهند يحاول التلاعب بي، لغايات لا أعرف ماهي، أو لأسباب مجهولة.

أصبحت مشوشة ولا أقوى على التفكير أو مواجهة حقيقة ما يجري حولي.

اسمعي يا إنجي: إن هؤلاء الأشخاص مثل السيد مروان وغيرهم من رجال الأعمال ونساءهم أصحاب العمل الحسن بنظر جميع أفراد المجتمع، هم الوجه القانوني والإعلامي الموثوق بهم والمظاهر المزيفة لأعمالهم المشبوهة والغامضة.

وراء تلك الشخصيات المزيفة والبدلات الأنيقة نفوس مريضة وقبيحة من الداخل.

يظهرون أمام شاشات التلفاز والإعلام وأمام السلطات، والمحاكم بأنهم المدافعون عن حقوق الإنسان والبشر، وجميع أوراق أعمالهم قانونية، هذا بشكلها الظاهر، أما الوجه الآخر لأعمالهم الغامضة التي لا يعلم بها أحد غير ذلك على الإطلاق.

كلّ مؤامراتهم سرية، لا يوجد عليهم أي إثبات يدينهم ويعملون ضمن خطط سرية تامة حتى هم أنفسهم لا يعرفون من هو الوسيط السري بينهم، لذلك نحن نعمل ضمن حدود ضيقة جداً، ولا نستطيع كشف عملائنا، ونعمل بإمكانياتنا المحدودة المتوفرة لنا حالياً.

فمن نستطيع مساعدته، من هؤلاء الفتية، المغرر بهم أو المخطوفين، يكون القدر قد كتب له حياة جديدة، ومن لا نستطيع مساعدته، يكون من سوء حظه، وكان الله في عونه وعون الجميع.

لا أعلم حينها، لماذا كثرت الأسئلة في عقلي أثناء حديث الدكتور مهند.

سألته لماذا السيد مروان غير متزوج ولا أراه يستهوي أياً من الفتيات اللائي حوله؟

بما أنه يعيش في قصر تتمنى أي امرأة ممن حوله، العيش معه فيه وتنجب له عشرة أبناء.

عدا عن شخصيته الجذابة ومكانته الاجتماعية الجيدة، المرموقة في المجتمع.

وقف الدكتور مهند عند حافة النافذة، وهو يزيح بحذر شديد الستار، ينظر خلفه بالتلصص والقلق.

ثم سار قليلاً نحو الأمام، اقترب من الطاولة التي تتوسط الغرفة، حمل الأوراق الموضوعة عليها وكان بينها فلاشه كمبيوتر، وضعها في جهازه.

قال لي: انظري إلى هذا الشخص أليس هذا السيد مروان، أرأيت هذا الفيديو المصور يا إنجي، إنه من أحد فنادق العاصمة، كان يعنف فتاة قاصراً، لا يتجاوز عمرها السادسة عشرة وقد التقطت له هذه الصور في أحد فنادق اليونان.

السيد مروان يا إنجي، لديه مشكلة مرضية فهو يعاني من العجز الجنسي.

في البداية، كان يأتي بالفتيات القاصرات إلى قصره، بعد أن يصل معهم لحد درجة النشوة كان يصاب بالعجز، وعدم إتمام عمليته الجنسية لنهايتها، كان هذا الأمر، يصيبه بالجنون والتذمر، على إثر موجة الغضب والإحباط التي ترافق انفعالاته، يقوم بتعذيب الفتاة التي تكون برفقته، بجلدها بالكرباج، ثم يعطيها المال الكثير ويعيدها إلى المكان الذي جاءت منه، ومن ثم يحررها ويعيدها إلى ذويها عند أهلها كأنها عبدة وقد حررها من العبودية.

منهن من كانت حالتها تسوء أثناء عملية الجماع والتعذيب ليقوم فيما بعد بحقنها وتخديرها بإبرة شلل، ورميها في ذلك القبو الذي كنت أنت فيه، ويتركها هناك وهذا ما يسمى الموت البطيء.

لكن في الفترة الأخيرة امتنع عن فعل ذلك الأمر، بعدما شعر بأنه في خطر وكشف أمره، ولا يستطيع فعل أي شيء حيال هذا الأمر، وأن حالته ميؤوس منها.

وأيضاً لا أعلم إذا يزال على ما هو عليه، أم أنه ترك فعل هذا الشيء.

حتى أن نشاطه الإجرامي والتجاري في الفترة الأخير أصبح محدوداً بشكل كبير، ولا يبدي أي نشاط يذكر له.

قد يكون اكتفى بما جمعه من ثروة طائلة خلال السنوات الأخيرة، تكفيه مدى الحياة.

وأيضاً أنت تعلمين بأنه ليس له وريث.

فمن أجل من سيجمع كلّ هذا المال؟

بينما كان الدكتور مهند يتكلم ويصف ما يقوم به السيد مروان من أفعال قبيحة ورديئة، جحظت عيناي إلى الأمام وكادت الصدمة أن تفقدني صوابي.

ثم تذكرت أمراً مهماً كان يحدث معي، عند نهاية كلّ ليلة أقضيها خارجاً معه، حينما أعود للقصر وأنا منهكة ولا أقوى على الحركة ولا أتذكر كيف عدت إلى سريري.

حاولت إخبار الدكتور مهند، ولكن بقيت في صمت حتى أتأكد من الموضوع الذي خطر في رأسي.

قد يكون السيد مروان يضع لي شيئاً في ذلك المشروب الذي أشربه، في كلّ مرة أذهب معه إلى ذلك البار، في المنطقة الجنوبية من العاصمة، أشعر حينها بالدوار، ولا أستطيع السير ألا بصعوبة، بينما في اليوم التالي أنسى كلّ من رأيت وكيف عدت إلى غرفتي وأيضاً ما كان يحدث معي أثناء جلوسي معه في البار أو اللقاء مع أحد معارفه.

سألني الدكتور مهند، ما بالك هل تذكرت شيئاً وتريدين إخباري به.

قلت له لا، لم أتذكر شيئاً وبقيت أصغي إلى ما يتحدث به الدكتور مهند.

ثم سألته عن السيدة جانيت.

ألا تريد أن تخبرني عنها بشيء؟

ثم أكملت سؤالي له بأني متأكدة أنه يعرف عنها الكثير.

لأن الشك بدأ يحيط بي ويقلقني، لمعرفة من تكون تلك السيدة التي قضيت معها أربع سنوات من عمري، في رؤيتها بجانبي ليل نهار، تهتم بكلّ تفاصيل حياتي.

أخبرته في حال كان لديك أي معلومة عنها أتمنى منك أن تطلعني عليها، لأن السيدة جانيت أخبرتني بأول لقاء دار بيننا، ورأيتها عند استيقاظي، أنها جاءت للقصر منذ يومين فقط للعمل به والاهتمام بي.

رد الدكتور مهند، بضحكة ساخرة من الخبر الذي أخبرته به، أو عما قلتُه عن السيدة جانيت.

يجب عليك يا إنجي الحذر من تلك السيدة، ما عليك فعله الآن هو عدم الوثوق بها، أو من أي شخص آخر يوجد داخل ذلك القصر.

لأن الموضوع بكلّ بساطة السيدة جانيت، هي الشريكة الفعلية للسيد مروان في كلّ أعماله والمرافقة له في كلّ خطوة يخطوها وساعده الأيمن، ولا يستطيع أن يبت بأي قرار أو فعل أي شيء من دون الرجوع إليها، وهي التي تدير له أعماله المالية والمصرفية، خارج وداخل البلاد.

لكن في الآونة الأخيرة، اقتصرت أعمالها هي الأخرى على العمل داخل القصر فقط.

لا أحد يعلم ما جرى معهما، أو ماذا يجري بداخل ذلك القصر وما هو الاتفاق المبرم بينها وبين السيد مروان.

لأن السيدة جانيت اختفى أي نشاط لها منذ ظهورك أنت في القصر يا إنجي.

قد يكون الهدف من وراء اختفائها، أو تقاعدها عن العمل، بإيجاد بديل لها يقوم بالنيابة عنها في تلك الأعمال، أي قد يكون الأمر بأنها خرجت عن الخدمة وأصبحت في سن التقاعد، وانتهت صلاحية عملها بسبب تقدمها في السن.

أجبته بسخرية: إذاً هي الآن خارج الخدمة، وعملها يقتصر بداخل القصر فقط.

قد يكون من مخططات السيد مروان، إبعاد السيدة جانيت عن الواجهة أو العمل معها في العلن، بوجه جديد وجميل كأنت يا إنجي.

لا يوجد كلام منطقي، يدل على تردد السيدة جانيت بالمشاركة معه في جميع المناسبات والشعائر الدينية التي يحضرها غير هذا الكلام، سيتم استبدالها في يوم من الأيام وكلّ ما يفعله السيد مروان معك، هو إيجاد فتاة قوية وذكية لتأهيلها وتدريبها بشكل غير مباشر، لتقوم بالعمل الذي كانت تعمله السيدة جانيت سابقاً، ثم بعد تدريبك وتأهيل قدراتك على العمل معهم بشكل جيد يتم اطلاعك على كلّ ما يبتغيه أو يريده منك السيد مروان، بنياته الخطيرة، والخبيثة.

منذ زمن ونحن نراقب السيد مروان، ألم تلاحظي شيئاً مهماً أيضاً يا إنجي؟

حتى عدد الخدم محدود جداً، ولا يدع أحداً يدخل أو يخرج من القصر، سوى الخادمة ماري وحارسه الشخصي دانيال والسائق "مانويل".

أجبته بتردد: لقد لاحظت ذلك.

لكن من كثرة ما سمعت حقائق وأخباراً، عن السيد مروان والسيدة جانيت، لم أستطع أن أعطيه أي معلومة عن القصر ولم أخبره بصحة ما يتوقعه.

بقيت صامتة وأنا أشعر بكلّ حدث يخبرني به، كأني أعيش كابوساً مرعباً وأريد أن أستيقظ منه لأرى غير ما أسمع.

لم أخبره بأن جميع غرف القصر مقفلة بالمفاتيح ولا مرة استطعت أن أدخل إلى أي منها، حتى عندما سألت السيد مروان عن سبب إقفالها أخبرني،

بأنها غير مهمة ولا داعي لأن تكون كلّ غرف القصر مكشوفة لأحد، ولا يوجد غير باب واحد للقصر نخرج منه للحديقة ومن ثم إلى الطريق العام.
ثم كرر كلامه السيد مروان، بعدم إثارة الأسئلة الكثيرة غير المهمة عن القصر، وأن أهتم بأموري الخاصة فقط.
الآن عرفت كيف تحاك المؤامرات، كانت قديماً، تحاك في غرف سرية، مغلقة مظلمة، ضمن طاولة مستديرة، تحت الأرض، أو في قارب صغير في عرض البحر، أما الآن فقد أصبحت تحاك في أفخم المطاعم والفنادق وعلى شواطئ البحر من دون أي خجل أو وجل أو اعتبار لقيمة حياة البشر.
رغم كلّ الفساد الذي يعيشه المجتمع، كم من وجوه كالحة وأفكار هالكة، جعلتها حبيسة الجدران، قد انفجرت، وجعلت من الحقيقة قارب نجاة للحياة أكثر وضوحاً وإصراراً على معرفة كلّ شيء بوضوح.
غادرت غرفة الدكتور مهند، وأنا في أشد الغضب والذهول مما سمعته، لم أكن أصدق ما أسمع، وما هي الغاية من كلّ تلك الأحداث التي سمعتها، شعرت بأني تهت عن طريق الخلاص من الخوف والقلق والتوتر، لا شيء أستطيع القيام به.
أنا في متاهة أفعال وأقوال كلّ ممن هم حولي.
كم من الزمن أو الوقت أحتاج لأعرف من أكون؟

وما هذه الذاكرة الحمقاء الخائنة الغبية التي لا تستطيع أن تقترب مني وتساعدني في التخلص من كلّ هذا التشتت والضياع بعدما سلمت بأمري للحياة والقدر؟

ما هذه الحياة المرة البائسة، في كلّ لحظة وثانية تعيدني إلى قعر بئر مجهولة المصير.

بتلك اللحظات شعرت بشعور غريب، كأن كلّ ما أملك من قدرات عقلية ونفسية ترفض تصديق ما سمعت، ولا أريد أن أعرف أي شيء عن حياتي الماضية أو عما يحدث معي لاحقاً.

أجل هذا ما كنت أريده.

أريد أن أعيش في سلام وأمان، وأن أشعر بوجود عائلة تهتم بي وتحميني من الأشرار.

ها أنا للمرة الثالثة أقع تحت اختبار الحياة، في المرة الأولى عندما عاندتُ الممرضة في المشفى ووضعتني في القبو بين الجثث المتعفنة والأموات، وفي المرة الثانية عند أحببت يعقوب ورحل رغماً عني.

والآن جاء الاختبار الأقوى من السابق، هو كشف حساب السيد مروان والسيدة جانيت، أو حتى ماري أو مانويل أو دانيال، جميع تلك الوجوه بدأت ترعبني وأضعهم في قفص الاتهام والمحاسبة.

حين خروجي من باب غرفة الدكتور مهند كنت كمن أضاع طفلهُ، يريد البحث عنهُ في كلّ مكان، لم أكن أعرف إلى أين أذهب.

قدت سيارتي بسرعة كبيرة وبجنون، فجأة رأيت نفسي أقف أمام باب القصر، سخرت من وضعي ومن الحالة المزرية التي وضعت نفسي بها، كيف عدت إلى القصر من جديد دون أن أدري كيف وصلت إلى هنا، شاردة الذهن والعقل في كلّ كلمة ألقاها عليّ الدكتور مهند، تاركة خلفي السيدة جانيت وصديقاتي جافي وريبال في الفندق.

كانت الساعة الخامسة والربع من بعد الظهر، طرقت جرس القصر وأنا في تردد من العودة إليه.

ولكن إلى أين أذهب لا مكان آخر أعرفه، ولمن أشكي له حالي؟

وحتى لو عرفت أماكن أخرى، ليس من المستبعد، أن يأتي بي السيد مروان، من أي مكان أحاول الاختباء به أو الهرب منه، بعد كلّ هذه المعلومات التي عرفتها عنه اليوم وعن السيدة جانيت، كنت حاقدة على جميع من كان موجوداً في القصر.

يا لغبائي وسذاجة عقلي، فلا مفر من مواجهة الحقائق ومعرفة تفاصيل كلّ ما أريده، وما جرى سابقاً، أو ما سيجري معي لاحقاً؟

فتحت الباب السيدة ماري، كعادتها بابتسامة، ناعمة خجولة، ألقيت عليها التحية، ثم توجهت نحو الأعلى إلى غرفتي، خلعت ثيابي المبللة من شدة التعرق والحر الشديد أثناء طريق العودة، ثم دخلت إلى الحمام، وضعت نفسي تحت المياه الباردة، لا أعلم ما أفعله، أو سأفعله هل أواجه السيد مروان بالحقيقة التي أخبرني بها الدكتور مهند عن كلّ ما علمت عنه هذا

اليوم، أم أصمت وأستمر في تمثيلية التجاهل والفتاة البريئة المدللة التي تعامل كأميرة في قصر من الوحوش.

عند خروجي من الحمام رأيت رقم السيدة جانيت على شاشة هاتفي المحمول، في البداية امتنعت عن الرد عليها، ثم عاودت الاتصال بها وأخبرتها بأني عدت إلى القصر لأنه أصابني وجع في معدتي، وفضلت العودة إلى القصر.

قالت: بصوت به الكثير من الخوف والقلق والانفعال على وضعي.

لا تقلقي يا عزيزتي انجي سآتي إليك في الحال وأحضر الطبيب معي.

وهي تصدر هذه العبارات الانفعالية العاطفية بالإحساس الصادق، أصابتني نوبة بكاء شديدة.

لماذا يحدث هذا معي؟

كلّ هذا العطف والحنان في المعاملة التي أجهل مصدرها، كيف أبادلها بسوء النيات من قبلي؟

وكيف أستطيع خيانة إنسانة قامت برعايتي طوال أربع سنوات؟

تهتم بكلّ تفاصيل حياتي، وتوتري، وانفعالاتي، وقلقي، وغضبي، ومساعدتي في تجهيز فروضي، وهي من علمتني كيف أتعامل مع من هم حولي، وإتقان اللغة الانجليزية واللغات الأجنبية الأخرى.

كنت في امتحان صعب تجاوزه ولا يمكن أيضاً تخطيه بسهولة.

ثم تذكرت صديقاتي جافي وريبان، أنهما لا يزالان في الفندق، اتصلت بهما وأخبرتهما أني عدت إلى القصر بنيقوسيا، وإذا أرادوا أن يبقوا في الفندق الاختيار يعود لهما.

وأنا أقف عند حافة النافذة، رأيت السائق مانويل يقف مع السيد دانيال الحارس الشخصي للسيد مروان يتبادلان الأحاديث بتوتر وانفعال.

لم أعلم حينها ما هو الحديث الدائر بينهما.

قد يكون السيد مروان علم بعودتي إلى القصر لوحدي ووبخهم على تقصيرهم في عملهم، أو قد يكون هناك أمر آخر لا أعلمه.

لم تمضِ ساعة على اتصال السيدة جانيت إلا وكانت واقفة بجانبي وقد أحضرت معها الطبيب الخاص للعائلة كما كانت تقول عنه الدكتور" فكتور روب".

قلت لها لا داعي للدكتور، لقد تحسنت حالتي كثيراً عما كنت عليه حين عودتي إلى القصر.

منذ قليل طلبت من السيدة ماري أن تحضر لي كوباً من النعناع الأخضر، وها أنا في تحسن.

بعد أن تمت معاينة الدكتور لحالتي غادر الطبيب وبقيت لوحدي أتأمل في جدران الغرفة.

هل هناك أي كاميرة مراقبة، قد وضعت من دون علمي في إحدى الزوايا؟

لم ألاحظ أي شيء، ولكن الشك والقلق والتوتر والانفعال كان مسيطراً على تصرفاتي.

لم أستطع البقاء في الغرفة، قررت أن أخرج منها إلى حديقة القصر.

في أثناء ذهابي إلى الخارج، التقيت على الدرج بالسيدة جانيت، كانت تحمل بيدها قطعة من القماش الحريري، زرقاء اللون، مطرزة بعروق ذهبية، مرصوصة بأحجار فضية صغيرة.

سألتها في الحال ما الذي تحملينه في يدك؟

على الفور أجابتني: بأنه يجب عليّ الصعود بسرعة، إلى غرفتي لتأخذ مقاس الخياطة، لأن اليوم هناك لقاء مهم مع السيد مروان والوفد الألماني المرافق لشركة بناء القوارب والسفن وهذا هو اللقاء الأول بين الشركتين.

قلت: مستغربة بيني وبين نفسي، لو أن السيد مروان وزير الاقتصاد، لا يكون لديه كلّ تلك الاجتماعات والمواعيد مع الوفود.

نظرت إليها بذهول، وقد خطر على بالي، فوراً كلام الدكتور مهند.

إن السيدة جانيت هي شريكته الفعلية للسيد مروان، كما أخبرني الدكتور مهند، وهي اليد اليمنى له في كلّ أعماله المشبوهة، لذا هي تعرف عنه الكثير.

ما هو السبيل للصمود في وجه كلّ هذه الأحداث التي جرت أو ستجري معي لاحقاً؟

أو كيف استطيع أن أنتزع من السيدة جانيت المعلومات جميعها التي تفيدني، وتعيدني إلى حياتي السابقة، على أقل تقدير، أعرف منها كيف حدث الحادث الذي أدى إلى موت والدي، كما يدعي السيد مروان، أو حقيقة عملية الخطف التي جاءت بي إلى قبرص، ولمَ أصبح وجودي بهذا المكان الشيء المحبب والدائم والمقبول لدي؟

بدأت الأفكار تتوافد على عقلي، تطرق أبواب مخيلتي، كيف سأعرف منها كلّ ما يجول بخاطري؟

ما هي حقيقة أمري؟

هل كلام الدكتور مهند صحيح؟

أم أنه هو الآخر جاسوس لجهة ما؟

ما هي الوسيلة أو الطريقة لمعرفة حقيقة كلّ تلك الأحاديث، التي دارت بيني وبين الدكتور مهند؟

لكن ما صحة شريط الفيديو الذي رأيته عندما كنا معاً في الفندق؟

أسئلة كثيرة لا أستطيع تصديقها أو تكذيبها.

سمعت السيدة جانيت تنده في وجهي، ابنتي إنجي هل أنت بخير؟

ابتسمت لها بحنان وأمسكت يدها.

أنا بخير يا سيدة جانيت.

بينما في داخلي أردد بصوت خافض، اهدئي يا إنجي، لا تثيري الريبة أو المشاكل، كلّ شيء سيظهر في لحظة ما توقفي الآن يا إنجي.

تمالكت نفسي وغضبي وانفعالي، وأنا أحاول بكلّ ما استطعت أن أهدأ، وأعيد وأكرر لروحي.

وأنا أقول: أما الآن سأهدأ، وأتمالك نفسي من جديد بينما تتضح الرؤيا أمامي أكثر، لا أريد أن يتكرر ذلك الكابوس المرعب الذي عشته سابقاً بين الجثث المتعفنة والأموات.

صعدت معها إلى الغرفة، ثم جاءت السيدة ماري وهي تخبرني بأن الخياط الخاص بالقصر السيد جاكوب قد وصل وهو في انتظاري في غرفة الاستقبال، لأخذ مقاس الثوب الذي سأرتديه الليلة أثناء لقائنا بالوفد الألماني.

السيد جاكوب الخياط الخاص للقصر، كان كبيراً في العمر من أصول صربية من جزر البلقان.

اعتذرت من السيدة جانيت، وأخبرتها بأني لا أستطيع أن أتواجد معهم الليلة، ومع السيد مروان في موعد اللقاء عند المساء لأني أشعر بالتعب والإرهاق.

حسنا إذا يا انجي سأخبر السيد مروان بما تريدين، عسى أن يستطيع تأجيل الموعد اللقاء إلى الغد.

قلت لها هكذا أفضل.

في مساء اليوم التالي عند لقائنا بالوفد الألماني، حاولت بكلّ ما في استطاعتي، بألا أتناول أي نوع من المشروب المقدم لي على الطاولة، حتى

الكأس الذي قدمه لي السيد مروان افتعلت حيلة للتخلص منه وسكبته في كأس الفتاة التي كانت تجلس بالكرسي المجاور، على الطاولة خلال تناولها طعام العشاء، كان في رأسي عدة أصوات تريد معرفة الحقيقة حتى لو كانت بإجابات مختلفة.

عند عودتي إلى البيت، ودعت السيد مروان، لأن غرفة نومه في البهو بالطابق الأول بجوار مكتبه، وأنا صعدت إلى غرفتي مع السيدة جانيت في الطابق الثاني، لتساعدني في خلع ملابسي، والتحدث قليلاً عن الحفل واللقاء، وأيضاً لتسرح شعري.

في صباح اليوم التالي، قررت عدم اتخاذ القرارات السريعة والتروي في معرفة كلّ ما يتعلق بالماضي أو الحاضر والمستقبل.

كنت أقف أمام المرآة، أتأمل حالي وأنا أغسل وجهي.

إذا أراد الدكتور مهند ومن معهُ، التخلص من السيد مروان ها هو الآن تحت تصرفهم.

لن أفرط بشخص حنون وكريم مثل السيد مروان، أو السيدة جانيت، ولن أضحي بكلّ هذه الثروة من أجل أحد.

استحالة أن أسلمهم أي أوراق تثبت إدانة السيد مروان، ليس لأني أرغب بالتخلص من السيد مروان، أو من أي أحد، أو أذية أي شخص مما هم حولي، لا أبداً، بل لأنني أشعر بالعجز والضعف من عدم وجودهم بجانبي، لا أملك القوة والحماية التي يوفرها لي السيد مروان والسيدة جانيت وعلى

الرغم مما أنا عليه، من إحباط وخيبة أمل، إلا أنهم هم الوحيدون في الوقت الحاضر الذين لهم الفضل الأكبر، في تخليصي من الموت أو الفقر والجوع، أو التشرد أو أسباب كثيرة أتخيلها الآن تمر في رأسي.

ولكن من جانب آخر، كنت أعيش في صراع دوامة التخبط بين ما سمعته وما كنت أعيشه بكنف رجل لو كنت ابنته الحقيقية ما كنت سأحظى بكلّ هذا الاهتمام الذي أولاه لي.

بدأت أكرر يا إلهي ما هذا الذي أقوله: وما ذنب كلّ هؤلاء البشر، الشبان والفتيات الصغيرات في مقتبل العمر، أن يعيشوا ما أعيشه أنا الآن في تخبط وإرباك وضياع بين الحقيقة والوهم، بخطفهم وإذلالهم.

بعد جهد كبير، فكرت جيداً بالأمر.

إن السيد مروان ليس له وريث من بعده، ولم أعد أثق بأحد، حتى بالدكتور مهند لا أستطيع تصديق شيء منه أو من القصص التي رواها لي، لأني رأيت معاملة عكس ما كان يقوله عن الرجل الذي فتح لي باب منزله لأكون بهذا المستوى الذي أنا به الآن.

أنا لا أملك أي دليل على صحة كلامه أو تكذيبه.

وأيضاً هناك أمر آخر خطير للغاية، في حال وضعت المحكمة يدها على جميع الأملاك وممتلكات السيد مروان ماذا سيحل بحالي، هل سأبقى في هذا المكان أم أنّ المحكمة، ستقرر أخذ كلّ ما يملكه السيد مروان، وأطرد من هذا القصر، سأبقى مجرد فتاة تائهة في هذه الحياة بلا بيت أو مأوى.

لن أنخدع بفلسفة الحياة، هل أعيش من أجل العيش أم أعيش من أجل الثروة والمال، وهل كلّ ما خلقه الله في هذه الحياة ملك للإنسان، وبما أن الله أراد لي أن أعيش هذه الحياة وبهذا القصر سأحافظ على ما كتبه الله لي.

وبما أني لا أتسبب بأي أذية لأحد، لن تقع على عاتقي أو كاهلي أي محاسبة قانونية أو أخلاقية، ولن أضطر إلى أن أخدع أحداً.

الآن أنا سيدة القرار وأملك مفتاح النجاة من هذه الظلمة التي أعيش بها.

****

خلف الكواليس

كانت الساعة تشير إلى ما بعد العاشرة ليلاً بقليل من شهر يناير لعام سبعة عشر وألفين، بتاريخ الحادي عشر، بعد الانتهاء من أعياد الميلاد، ورأس السنة الميلادية، عندما سمعت السيد مروان يقول بأي مشفى هي.

كان البرد القارس، مدجج بكلّ أسلحته، والظلمة كالطاووس فرد أجنحته بغرور لا متناه.

شعرت بشيء كالانفجار الرهيب حدث في ذلك الوقت، كلّ العادات المألوفة، كانت غير مألوفة في هذا اليوم.

خرج السيد مروان عن هدوئه المعتاد.

ثم خرج بسرعة، لم أستطع حتى أن أصل إليه لمعرفة ما الذي حصل معه، خرجت من باب القصر لأرى إذا كان لا يزال خارجاً في الظلمة الحالكة، كي أعرف ما يجري معه وعمن يتكلم إذا الذي سمعته هو المشفى أم لا.

كانت المحلات مغلقة، وحركة السير في الشوارع المحيطة بنا، خفيفة لدرجة الخوف والرعب، الطقس بارد جداً ومن المتوقع أن تهب عاصفة ثلجية، قوية تشل حركة النقل وكلّ مجريات الحياة اليومية.

حاولت بكلّ جهد أن أعرف ما الذي جعل السيد مروان بهذه الحالة من الغضب والتوتر.

ذهبت إلى غرفة الخدم لأجد السيدة ماري تبكي وتنتحب بشدة.

سألتها ما الذي حدث، ولماذا كلّ هذا البكاء؟

قالت: إن السيدة جانيت، تعرضت لحادث سير مروع، وهي الآن في العناية المركزة.

حاولت الاتصال بالسيد مروان كان هاتفه مغلقاً خارجاً عن نطاق التغطية.

شعرت بالقلق والتوتر الشديد حيال ما سمعته، انتظرت أي خبر يصل عن السيدة جانيت لم أستطع معرفة أي شيء عنها.

بقي أمر السيدة جانيت، وما حدث معها غير مفهوم.

إلى أن جاء السيد مروان في اليوم التالي عند الساعة الحادية عشرة صباحاً كان مرهقاً، ومتعباً، والحزن يملأ عينيه.

سألته عن حال السيدة جانيت، أجاب بصوت مبهم، بأنها لا تشعر بوجود أحد حولها.

شعرت بالتوتر الشديد والخوف من أن تفقد حياتها، من دون معرفة هل لها علاقة بعملية الاختطاف التي تعرضت له ذلك اليوم، أنا وصديقتي هديل أم لا علاقة لها بتلك العملية.

بعزم وتصميم هيأت نفسي وذهبت إليها، لم تكن تحتاجني أعرف ذلك.

كانت ترقد في العناية المركزة، والدخول إليها ممنوع إلا تجاوزاً.

غير الواجب، ثمة شوق استعر يومها، بداخلي، دفعني للذهاب إليها، فقد مضى يوم كامل لم أرها، وأنا من اعتاد وجودها في حياتي ملازمة لي طوال الوقت، ومن دونها كنت أشعر بالضياع.

سألت عن حالتها الصحية، أجاب الطبيب قد تستيقظ إذا شعرت بوجود أحد محبب لديها.

استجمعت ما تبقى بي من قوى خائرة بسبب الحزن والخوف ودخلت، نظرت ملياً إلى وجهها، وجهها المحبب إلى قلبي اقتربت منها متوترة.

وقفت مرة بجانب سريرها من اليمين، ما لبثت أن ذهبت لليسار.

لم أعد أدري ما سأفعل، انكببت أمسد لها أرجلها، لم تبدِ أي ردة فعل، تابعت، انتقلت إلى يديها، ثم إلى وجهها، إلى شعرها.

رأيتها تفتح عينها بصعوبة.

سألتها، أتريدين شيئاً؟

جابت: لا، تأوهت ألماً.

سألتها سؤالاً أعرف إجابته، ماذا يؤلمك؟

بصوت خفيض أجابت أريد الماء.

ثم أجابت لا أريد شيئاً.

أردت أن أسمع صوتها فقط.

أنظر إلى الشاشة المعلقة فوق السرير وإلى أرقام التي لا أفهم منها شيئاً.

ربما لأني لمحت أحد الأرقام متدنياً.

ضاق نفسي، بدأت أفقد توازني.
خرجت مسرعة قبل أن أفقد مزيداً من نفسي وجرح الشك يملأ عقلي.
لم أستطع الجلوس إلا قليلاً، في بهو المشفى.
رؤية المشفى والأطباء ورائحة الدواء، تعيد إلى ذاكرتي أول مرة استيقظت فيها وأنا لا أعلم من أنا، وما جاء بي إلى هذا المكان، والألم والغضب يأكل جسدي.
بل بكلّ تصميم عدت مترنحة إلى البيت.
فقد أدركت أني لا أستطيع احتمال، تحمل الألم أكثر على مقربة منها.
رغم كلّ ما كانت عليه سابقاً سواء كانت شريرة أو مجرمة فهي كانت لطيفة معي، علمتني أشياء جميلة وممتعة.
كانت معي السيدة جانيت امرأة مثقفة وحنونة، لدرجة العطف والشفقة عليها الآن.
درجات الحرارة توالي انخفاضها، والظلام دامس أكثر وأكثر بكلّ ما يمتلك من عنجهية ولؤم، لكني سرت أجوب الطرقات الخالية، وحدي من دون إحساس بالخوف لمثل هذه الساعة المتأخرة.
ربما إحساسي تجمد من البرد والحزن، أو ربما من دون شعور مني جمدته، لأستوعب أنها تتألم بهذا الشكل المبرح ولا أستطيع مساعدتها.
رغم عدم أي صلة رحم أو قربة بيننا، إلا أن الألم عليها كان يعصر فؤادي نحوها.

عندما وصلت إلى البيت، شعرت بالنعاس وأنه يجب أن أنام، رغم أني قد نمت على غير المعتاد في الظهيرة، وأنا أنتظر الطبيب ليخبرني بشيء عن حالتها الصحية.

بعد إغفاءة قصيرة، نهضت، درت في كلّ أنحاء الغرفة، كأني أبحث عن شيء مفقود، لا أعرف ما هو.

قرب مكان جلوسها، أطلت الوقوف.

عسى وعل أن أجد ضالتي المنشودة، لكنني فشلت، بيأس وأسى، عدت للنوم، ما هو إلا وقت قصير حتى أخذ الجوال يرن قرب أذني.

نحيب يقطع الهواء يقطع صمت الظلام اسم ماري التي ذهبت بعدي إلى المشفى لتبقى معها للصباح.

الساعة تشير إلى الثالثة والنصف، الزمن يتوقف، العقارب تفرغ سمها في قلبي، بكاء، زعيق ألم يقطع الصمت في المكان.

الأرض تهتز، الفجر ينتحب.

ماتت السيدة جانيت.

مات معها سرها الكبير، ذكريات أربع سنوات من رؤيتها بجانبي، ترعاني كأني طفلتها المدللة، تهتم بكلّ تفاصيل حياتي.

رحلت من دون أن أعرف، ما علاقتها بحالة الخطف التي تعرضت لها.

هل لها علاقة بخطف المراهقات؟

وإرسالهن إلى أماكن سرية ومجهولة كما أخبرني عنها الدكتور مهند؟

أم هل جميع القصص والروايات التي أخبرني عنها مفبركة ولا صحة لما يقول ومن صنع خياله؟

شعرت بخسارة لا يمكن أن يعوضها أحد غيرها مهما كان، ماذا سيحل بحالي من بعدها.

هل يجوز أو هل أَريد أَن أَجد مبرراً كي أَستمر على قيد الحياة بأن أنعي روحي وروحها معاً؟

كي أتحملَ المشهد اليومي المُرعب للمرض، والقُبح والظلم والموت، من دون أن تكون بجانبي وأسمع نصائحها.

موت السيدة جانيت، ترك أثراً صعباً تفسيره.

بقيت في غرفتي طوال الليل أبكي وأنتحب على فراقها، لم أستطع أن أتخيل حالي من دونها، أكيف سيمر يومي من دون أن أراها بجانبي طوال الوقت، وهي تتلو عليّ ملاحظاتها وأحاديثها الشائقة.

كأني طفلتها الصغيرة، ما أزال أتعلم الأشياء لأول مرة منها.

لقد كان لي معها أجمل اللحظات والذكريات بالحبّ والعطف وحميمة الأمومة، من الصعب عليّ أن أصفه في بضع كلمات.

الألم يعصر فؤادي، لا أستطيع أن أتنفس، سمعت صوت الطرق على الباب.

جاءت ماري تخبرني بأن السيد مروان حالته مزرية للغاية وأرادت مني أن أنزل إلى مكتبه.

أول مرة أرى السيد مروان بهذه الحالة، من الانهيار الشديد.

دخلت من باب مكتبه رأيته منكبا على نفسه يضع رأسه بين كفيه، يجلس في زاوية مكتبه على الأرض من ناحية الشباك المطل على حديقة القصر، ينتحب ويبكي كطفل صغير تؤلمه رحيل أمه عنه.

اقتربت منه، وضعت يدي على رأسه كي يراني بأني جئت إليه كما طلبت مني السيدة ماري.

رفع رأسه نحو الأعلى كانت عيناه محمرتين والدموع تملأ خديه.

لقد رحلت جانيت يا إنجي لم يعد لي أحد في هذه الحياة سوى أنت يا ابنتي، بموت جانيت انتهت حياتي.

سمعت كلماته، شعرت بالخوف والرعب عليه لأول مرة، أول مرة أرى الرجل الحديدي يصاب بهذه الهزة العنيفة، وبهذا الضعف.

جلست بجانبه، علني أفهم أي شيء مما يتحدث عنه أو أخفف عنه بعض الحزن والأسى، أو أسأله كيف حدث الحادث الذي تعرضت له السيدة جانيت وأدى إلى مصرعها، بقينا في صمت على ما يقارب الربع ساعة.

ثم نهض بانحناء من مكانه متكئاً على الكرسي الذي أمامه كان يطلق عبارات شجب وتهديد.

موت جانيت، سيحمل بعد هذا اليوم الدمار الكبير لكلّ من له يد في هذا الحادث، سأحاسب كلّ من تسبب في قتل جانيت.

لن يمر موتها من دون عقاب، أو من كان له يد بالتخلص منها.

نهضت من مكاني وأنا في حالة ذهول وتشنج مما كنت أسمع.

اقتربت نحوه.

أخبرني من قتلها ولماذا تقتل السيدة جانيت؟

هذه الروح الجميلة، المفعمة بالحبّ والحنان والعطف.

نسيت كلّ ما دار من أحاديث بيني وبين الدكتور مهند، حينما التقيت به في الفندق، لم يبقَ في ذاكرتي سوى صور السيدة جانيت وهي تهتم بي، ترعاني وتأتي لي بالطبيب ليرى حالتي، كانت ترفض أن تنام حتى تطمئن على تحسن حالي.

هل يستطيع أي طفل في العالم أن ينسى فضل أمه عليه ورعايتها له، أنا في حينها كنت أشعر كأني طفلة صغيرة بين أحضان السيدة جانيت.

أجابني السيد مروان، بأنه يجب عليه الآن الاهتمام بمراسم الدفن وسيبقى هذا الحديث سراً بيننا، ليطلعني على كلّ تفاصيل ما جرى، بعد الانتهاء من دفن السيدة جانيت.

أما الآن ما عليك فعله يا صغيرتي إنجي، هو الاهتمام بترتيب أمور النعوة، والاتصال بالمعارف لكي يحضروا الجنازة، بينما أنا أخبر عائلة السيدة جانيت بما حدث لها.

سألته إلى أين ستذهب في هذا الوقت الباكر؟

أجابني السيد مروان بأنه ذاهب لمنزل عائلة السيدة جانيت لإخبارهم بوفاة ابنتهم.

وهناك أمر هام عليه إتمامه، وإنهاءه قبل الذهاب إلى الكنيسة، للصلاة لها أولاً قبل الدفن.

ثم جاءت السيدة ماري تحمل في يدها أغراض السيدة جانيت التي كانت معها أثناء الحادث، لقد جاء بها السائق مانويل من المشفى.

أخذت ما في يدها من أغراض، وصعدت بهم إلى غرفتي كان قلبي سينفطر في حينها، لا شيء في ذلك الوقت أصبح له قيمة.

لم يعد يعنيني أن أعرف أي شيء عن حقيقة الأمور التي كان الدكتور مهند يتكلم عنها، أو يصف ما يقوم به السيد مروان والسيدة جانيت.

ثمة لحظة يكتشف بها المرء كم كان مغفلاً في اختياراته، كم كان مندفعاً وساذجاً وقت تصديقه للكلمات أو لأشخاص بمستوى الدكتور مهند، كم كان على خطأ حين سمح للأخطاء أن تتكرر، وكم يبدو على حق الآن حين اختـار الانسحاب من أجل سلامته مهما بلغت صعوبة ذلك القرار أو الاختيار.

في اليوم التالي، كان السيد مروان قد أعدّ كلّ شيء لمراسم الدفن، حيث تم الصلاة على السيدة جانيت في كنيسة الصليب المقدس، وهي أبرشية رومانية كاثوليكية تقع في مدينة نيقوسيا.

ثم نقل جثمان السيدة جانيت إلى مقبرة صغيرة بجانب القصر من الجهة الجنوبية، تبعد بضعة أمتار قليلة عن القصر، خصصها السيد مروان له ولعائلة السيدة جانيت حين يموت ليتم دفنهم بها.

استغربت ما يحدث من أحداث مريبة، تحدث أو تجري بحذر شديد وقلق من دون أن أفهم ما يدار حولي.

لماذا كلّ هؤلاء الرجال المنتشرين حولنا؟

هنالك خطب ما، وأشياء غامضة تحدث في الخفاء، أثناء موقف العزاء لا أستطيع فهمه.

كنت أنظر بوجوه الحاضرين وأسأل نفسي، هل هم أيضاً شركاء بالقتل والخطف مع السيد مروان والسيدة جانيت، أم أنني أصبحت أشك بالجميع ممن هم حولي من دون ان أضع أي مبرر للأحداث الجديدة القادمة.

لا يزال كلام الدكتور مهند يدوي في رأسي، كانفجار بركان خامد لا يُعرف متى يهدأ.

هناك الكثير من الأسرار والخفايا كان يجب كشفها قبل أن تقتل السيدة جانيت.

ظل السؤال يجول في خاطري؟

السيدة جانيت لم تعد موجودة الآن.

هل من بديل يقوم بالمهمة عنها، إذا كانت هي الشريكة الفعلية للسيد مروان في هذه الشبكة التي يديرها؟

وهل حقاً أنا من ستكون البديلة الفعلية لمشروعات السيد مروان كما يدعي الدكتور مهند؟

وضع السيد مروان صعب للغاية.

بين الفينة والأخرى أراه يمسح عينيه من الدموع كنت أراقب الوجوه وأحاول أن أتذكر أي أحد التقيت به سابقاً.

لا أعلم لماذا كنت أتخيل بأن السيدة جانيت ستخرج من التابوت، وهي تقول لي أنا هنا يا إنجي، لم أمت، تعالي يا عزيزتي كي أضمك إلى صدري يا طفلتي المدللة.

ثم رأيت السيد دانيال حارسه الشخصي، يقف بجانب السيد مروان، وضع في جيبه ورقة.

اقتربت منهم في الحال، وسألت السيد مروان.

هل هناك من خطب ما أو أي شيء؟

نظر نحوي وطلب مني أن أبقى بجانبه.

استغربت ما يحدث.

بعد الانتهاء من مراسم الدفن، وقبل عودتنا إلى البيت ومغادرة جميع المعزين لمكان الدفن.

لم يبقَ أحد في المكان سوى أنا والسيد مروان ورجال الحراسة العشرة.

اقترب نحونا رجل ضخم، قوي البنية، لون بشرته سمراء داكنة، يبدو أنه من القارة السمراء يتكلم باللغة الإنجليزية.

نزل من سيارته السوداء من نوع مرسيدس.

مد يده ليصافح السيد مروان، وتقديم العزاء والمواساة له بفقدان السيدة جانيت، إلا أن السيد مروان رفض أن يصافحه وخاطبه بقسوة وحزم: بأن هذا اليوم لن يمر بسلام.

ثم توجهت مع السيد مروان إلى السيارة والغضب يشعل المكان بالتوتر.

حينها أدركت، بأن حادث موت السيدة جانيت بفعل فاعل مؤامرة مدبرة للتخلص منها ومن السيد مروان.

بقيت صامتة لا أبدي أي حركة انفعالية، كي لا أزيد أي تشنج من توتر الموقف والإرباك في حينها.

لكني شعرت لحظتها كأنه لم يبقَ لي أحد في هذا الكون سوى السيد مروان، ومن الواجب مساعدته والوقوف إلى جانبه مهما كانت صفاته أو الأسباب التي أدت إلى فعل كلّ تلك الأحداث والأشياء معنا.

قبل وصولنا إلى باب القصر بأمتار قليلة، سمعت صوت إطلاق رصاص عشوائي.

وأنا أسأل السيد مروان عن سبب هذا الصوت؟

طلب من السائق مانويل بأن يغير اتجاه طريقه.

كانت عصابة السيد "نيكولاس" تحاول الدخول إلى القصر، فسرعان ما ساق السيد مانويل السيارة بسرعة جنونية إلى مكان آخر غير القصر.

من شدة ما كان السيد مانويل يقود السيارة بسرعة جنونية، ورأسي يطرق بحافة الباب من الخلف، وصوت راشات الرصاص القوي، والسيد مروان

يتصل بمعارفه ومع الشرطة، بالتبليغ عن محاولة اغتيال له ولمرافقيه، في أثناء ذلك شعرت كالبرق يلمع في رأسي من شدة ما كان السيد مانويل يقود السيارة بسرعة رهيبة، على إثر إطلاق النار وصوت الرصاص، والفزع الدائر حولي.

تذكرت يوم الحادث، وكيف تمت عملية خطفي من أمام كلية الطب البشري في المزة مع صديقتي هديل.

صوت الرصاص والرعب، أعاد ذكريات الماضي بكامل تفاصيله، تذكرت صوت السيد مروان حينما كان يتصل بنا إلى البيت في حي المهاجرين بدمشق، وكيف كان والدي يخبرنا عن ذكرياته معه عندما كان لا يزال طالباً يدرس في كلية الحقوق مع والدي حسن، ويأتي إلى بيتنا في حي المهاجرين بدمشق.

وأنا بجانب السيد مروان في السيارة، والسيد مانويل يقودها بسرعة جنونية لا أعرف إلى أين هو متجه، وذكريات دمشق تأتي متتالية على رأسي كالموج الهائج الملتطم فوق الصخور.

قلت له أنت مروان الذي كان والدي وجدي دائم الحديث عنك، يتفاخرون كيف كنت تتفوق عليهم جميعاً في المدرسة والذي كنت تسكن بالشارع المقابل لحديقة "النيربين" من بناء بيت أهلي في حي المهاجرين بدمشق.

نظر السيد مروان نحوي بذهول وظل صامتاً.

جاءته جفلة كمن سقط في بئر ماء، وتجاهل كلّ ما يحدث حوله من ملاحقة ومحاولة قتل له ولنا جميعاً.

لم ينطق بأي حرف كالعادة، وضع يده في جيبه، وأخرج منه منديلاً ليمسح العرق الذي يتصبب من على جبينه بغزارة.

خاطبته بتأنٍ وهدوء.

لقد تذكرتك يا سيد مروان، أنت وحسن والدي وأمي نجلاء وأخواتي جميعاً، جنان وسمير أخي وسمر، و هديل صديقتي.

لماذا أنا هنا في قبرص وما هذه الثياب التي أرتديها؟

ماذا يحدث معي الآن؟

هيا أخبرني، استدار نحوي السيد مروان، ونظر إلى بتعجب ودهشة مما سمع في حينها، ثم طلب مني أن أصمت قليلاً، وهو يحاول بتأنٍ أن يهدئ من روعي وشدة توتري.

اهدئي يا صغيرتي، الحمد على سلامتك لأنك أصبحت الآن بخير.

سأخبرك بكلّ شيء، بينما نصل إلى مكان آمن بعيداً عن صوت الرصاص ومن أراد التخلص منا.

وعدني بأنه سيخبرني بكامل التفاصيل عندما يهدأ الوضع ويزيل هذا القلق والمحنة، التي تحيط بنا.

وصلنا إلى منطقة كيرينيا، بالقرب من قصر ليدرا في شمال قبرص، كان يوجد قائم مقام فيها، صديق السيد مروان، تحدث معه عما جرى لنا من أحداث مريبة في الآونة الأخيرة، وكيف ماتت السيدة جانيت، اقترب مني القائم مقام وقدم لي العزاء بموت السيدة جانيت.

ثم أمن لنا القائم مقام الحماية الكاملة.

ومكثنا في تلك المنطقة قرابة عشرة أيام.

كان السيد مروان طوال تلك المدة التي قضيناها في كيرينيا، يتجاهل الحديث أو الاقتراب مني أو توجيه حديث جانبي أو خاص، أو أي سؤال حول أي موضوع يؤدي إلى زيادة الكلام أو النقاش والحوار أو توتر بالعلاقات فيما بيننا.

كنا في توتر شديد كأننا محاصرون وفي حرب دموية، كان السيد مروان دائم الانشغال وفي تهيؤ تام لأي حدث سيحدث لاحقاً.

لم أستطع أن أتحدث معه عن أي موضوع يتعلق بالماضي، بل كان التغاضي والتجاهل والصمت سيد الموقف في إثنائها.

بذلك الوقت، الذي كنا نقيم به في منطقة كيرينيا في شمال قبرص.

إلى أن حلّ الخلاف القائم بين السيد مروان، وعصابة السيد نيكولاس، ثم قرر القائم مقام في حينها عودتنا إلى القصر في نيقوسيا، بعد تأمين الحماية الكاملة لنا.

النفق المظلم

ونحن في طريق العودة اتصل السيد مروان مع السيدة ماري لكي تعود إلى القصر وتعد لنا طعام الغداء.

بعد عودتنا إلى القصر وتناول طعام الغداء والانتهاء من تناوله، نهض السيد مروان من وراء الطاولة، وأشار إلى أن نذهب معاً إلى غرفة مكتبه الموجود في القصر.

كنت أسير خلفه وأنتظر كلّ ذلك الوقت بصبر أيوب.

لم أكن أعلم، أن عدم تمسكي بالحياة سينعكس عليّ بهذا الشكل، لطالما تذمرت من الحياة وما يربطني بها، فالكثير من الناس تربطهم قوة خفية بهذه الحياة: ربما عمل، شهرة، زوجة، أطفال، أو مشروع تجاري، أما أنا لا شيء يربطني بهذه الحياة سوى معرفة حقيقة الماضي وما جرى معي، هكذا ظننت سابقاً.

دخل السيد مروان إلى غرفة مكتبه وجلس خلف طاولة المكتب كالعادة، ثم أخرج من درج مكتبه عدة أوراق وملفات.

وهو يقول: لي اجلسي هنا يا إنجي، ثم تابع حديثه معي.

أنا يا إنجي أعمل في مجال المحاماة، منذ عقدين من الزمن عشرون عاماً لم يحدث معي أي خطأ، لم يمسسني أي سوء في سمعتي كانت جيدة، بل ممتازة بين جيراني، بين العامة حتى بين زملاء المهنة، حتى كان ذلك اليوم.

سامح الله السيدة جانيت، فقد طلبتُ منها ألا نتعامل مع السيد نيكولاس، هزت برأسها كالعادة، صعوداً ونزولاً عدة مرات بالموافقة وهي تتمتم، توقعت أنها تحمد الله على ما نحن فيه من نعمة المال وراحة البال، لعلها كانت حينها تتذمر مني.

لم يخطر في بالي غير ذلك، إلا أنها وقعت مع السيد نيكولاس عقد شراكة لمدة ثلاثة أعوام، في بناء منتجع سياحي في المدينة.

سألتها بتعجب أو بعجلة من أمري.

لماذا فعلت ذلك يا جانيت وما هذه الورطة التي لا تغتفر؟

وقعنا حينها في مأزق لا تحمد عقباه.

لكن يا سيد مروان، إن السيدة جانيت أخبرتني عند أول مرة رأيتها بها، بأنها تعمل في هذا القصر منذ يومين فقط وهي جديدة في هذا المكان.

قد جاءت إلى هنا كموظفة من قبلك، لكي تساعدني في ترتيب أموري والاهتمام بي.

نظر السيد مروان إلى صورة السيدة جانيت، التي كانت أمامه على سطح مكتبه وحملها بيده.

كانت عيناه تغمرهما الدموع، وشهقة منهُ تحرق الأنفاس، وهو يردد لها بالرحمة والمغفرة والسلام لروحها الطيبة الكريمة.

سامح الله السيدة جانيت، لقد كانت تحبّ المرح والمزاح كثيراً، حينما سألتها عن سبب قيامها بهكذا فعل.

لماذا لم تخبري الفتاة بأنك مقيمة هنا في هذا القصر منذ زمن؟

وأن هذا القصر هو ملك لك في الأساس يا جانيت؟

سخرت جانيت مني مثل العادة، ولم تبدِ أي اهتمام لما نبهتها منه.

إذاً أنت والسيدة جانيت، تعرفان بعضكما بعضاً منذ زمن بعيد.

وضع السيد مروان صورة السيدة جانيت على مكتبه، ثم نهض من مكانه واتجه نحو النافذة التي تطل على حديقة قصره.

قائلاً بحزن وألم: كنت في السادسة من عمري، عندما اصطحبتني السيدة سالي عمة السيدة جانيت معها إلى منزلها في حي المهاجرين بدمشق.

كانت عمة السيدة جانيت تعمل كمدرسة للغة الفرنسية، هي و زوجها السيد نبيل، الذي كان يدرس مادة اللغة العربية في ميتم للأطفال، بتلك المنطقة القريبة من حي المهاجرين الذي كنت أقيم فيه منذ ولادتي في الأشهر الأولى من حياتي.

كنت بنظرهما فتى توقد في عينيه شعلة الذكاء والفطنة كما كانت تقول عني السيدة سالي الرحمة والسلام لأرواحهم، لاحظت السيدة سالي بأني فتى موهوب وأمتلك سرعة البديهة، والحفظ بسرعة رهيبة، عند إلقائها للدرس

ما زاد تعلقها بي، إذ تعلمت حفظ الأحرف الفرنسية وعد الأرقام الحسابية من أول مرة كانت تلقيها على الطلاب والطالبات الذين كانوا معي في الصف.
من شدة حبّها وتعلقها بي هي وزوجها السيد نبيل، ورأيهم بأني فتى موهوب وعندي قدرات هائلة في التعلم والحفظ رفضت أن أبقى في الميتم كي لا يشعرني ذلك المكان فيما بعد بالتذمر أو الإحباط.
لذلك أصرت السيدة سالي أن تأخذني معها إلى بيتها، أي للتبني من قبلها وقبل عائلتها.
رغم رفض واعتراض أخيها السيد جوزيف والد جانيت لفكرة التبني من فتى مجهول الهوية والنسب.
سألت السيد مروان، لماذا كنت في الميتم؟
حدق بي بنظرة استغراب، ثم وضع السيد مروان الأوراق من يده على الطاولة، ليجلس أمامي على الكنبة المقابلة.
رد عليّ قائلاً: ماتت أمي بعد ولادتي بشهر، بحمى النفاس، وما كان على والدي إلا أن تخلى عن تربيتي ليضعني بذلك الميتم للأطفال، لأن عشيقته في ذلك الوقت بعد وفاة أمي التي أصبحت زوجته فيما بعد، رفضت أن تهتم بطفل ليس ولدها، ولا يمت لها بصلة الرحم، ثم هاجر والدي مع عشيقته بعد أن أصبحت زوجته إلى كندا.
بعدما حصلت على شهادة الماجستير، في كلية الحقوق بجامعة دمشق، وعملت بها كمحامٍ، تراود على فكري أن أعرف من تكون عائلتي.

ولماذا كنت أقيم في الميتم قبل التبني من قبل السيدة سالي وزوجها الأستاذ نبيل، أردت أن أعرف حقيقة نسبي وكره والد جانيت لي على مدار عقود من الزمن، ورفضه لطفل لا يعرف من الحقد والكراهية إلا اسم هذه المعاني.

حينما سافرنا أنا وعائلة السيدة جانيت وعمتها وزوجها وأبناؤها جميعاً إلى قبرص، عدت من جديد إلى دمشق للبحث عن حقيقة نسبي ولقبي، لأكتشف أن أبي بعد وفاة زوجته، أي أمي التي ماتت بحمى النفاس لم يجد من يرعاني ويهتم بطفل رضيع عمره أيام قليلة، في أثناء ذلك أشارت عليه زوجته الثانية، بأن يضعني في الميتم ويهاجر معها إلى كندا، وعندما تتحسن أحوالهما، أكون أنا قد كبرت قليلاً ليعود أبي ليأخذني معه إلى كندا.

ولكن ليس كلّ ما نفكر به أو نخطط له يطبق على أرض الواقع، بل تأتي ضروب تمحو كلّ ما كنا نفكر به..

بقيت أبحث عن اسم عائلتي وحسبي ونسبي إلى أن حصلت على عنوان أبي في كندا التقيت به في إحدى مشافي مونتريال لأمراض السرطان الدم.

تعرفت إليه عن قرب، لم أستطع أن أعاتبه أو أحقد عليه لأن وضعه كان صعباً للغاية وأيامه الأخيرة معدودة.

لكن علمت أن والدي من منطقة العدوي بدمشق وأمي من منطقة دوما.

عدت إلى قبرص وأكملت باقي حياتي مع العائلة التي أعطتني الحبّ والحنان والعطف الذي حرمني منه أقرب الناس إلى نسبي.

لم أشعر بأي خسارة أني تربيت في بيئة اجتماعية من غير ديانتي أو دنياي، تعلمت أموراً وتعاليم الديانة المسيحية النصرانية من السيدة سالي وزوجها وأبنائها، على الرغم من أنها كانت تعلم أنني مسلم.

وتعاليم الديانة الإسلامية من جدك السيد محمود، الرحمة والسلام لروحه.

تربيت في بيت جميعهم مسيحيون، تعلمت الإنسانية والحبّ والعطف من تلك العائلة الكريمة، رغم الاختلاف الديني والمذهبي عنهم.

بقيت في منزل السيدة سالي إلى إن تخرجت من الجامعة.

تعاملت معي السيدة سالي، هي وزوجها وأبناؤها كأني طفلها الذي أنجبته من رحمها، على الرغم من وجود ثلاثة أبناء لديها غيري.

كنت الفتى الرابع بين أبنائها لم أشعر في أي لحظة أو يوم من الأيام أني مختلف عن أحد من أولادها.

كانت جانيت التي تصغرني بعامين فقط، لا تفارق بيت عمتها سالي، رغم رفض والدها السيد جوزيف، وتعنته لفكرة وجود فتى غريب ضمن العائلة مجهول الهوية والحسب والنسب بنظره.

إلا أني تعلمت مع أبناء تلك العائلة جميع طقوسهم العائلية وتعاليم شعائرهم الدينية المقدسة، كنت في كلّ أسبوع من يوم الأحد أذهب مع السيدة سالي إلى الكنسية للصلاة، في كنيسة الزيتون بباب شرقي، وفي الأعياد أحضر القداس وجميع المراسم والأعياد الدينية المقدسة لهم، حتى أصبحت جانيت الأخت والصديقة التي أفتخر بوجودها بجانبي طوال الوقت.

إحساس جميل وفخر بأن ترى أختاً لك مثل جانيت تقف بجانبك في كل الأوقات من دون ملل أو كلل أو تذمر أو سخط، بروحها البسيطة الجميلة المحببة، خاصة بعد سفرنا إلى قبرص، ووفاة عمتها سالي هنا في نيقوسيا.

كان الوضع يدعو بيننا نحن العائلة الواحدة، للتماسك والترابط الأسري، في مجتمع غريبٌ علينا من حيث العادات والتقاليد وأمور أخرى أيضاً.

حتى نمط المأكل والمشرب، لا يقارن بمجتمعنا العربي من حيث العادات والتقاليد، مع هذا المجتمع الغربي الراقي الجميل في كلّ شيء دون تمييز.

لكن جانيت مع عائلتها، والسيدة سالي وزوجها وأبنائها، نقلوا كلّ عاداتنا وطقوسنا معنا من دمشق إلى قبرص، وبما أننا كنا جميعنا متعاونين ومتكاتفين لم نشعر بالغربة أو الاغتراب عن موطننا سورية.

ثم سألت السيد مروان وكيف تعرفت إلى بيت جدي وأبي أو عائلتي بشكل عام.

ابتسم السيد مروان ابتسامة باردة شاردة.

حينما كنت صغيراً في دمشق تعرفت إلى والدك حسن الذي كان يسكن في الحي المقابل للحديقة، أي بيتكم حالياً أو بيت جدك محمود الذي ما يزال يسكن به والدك حالياً بعد أن تزوج.

كنا أنا وحسن وأبناء السيدة سالي، نجتمع معاً عند اللعب في الحديقة العامة، حديقة النيربين في حي المهاجرين بدمشق.

حتى أصبحت علاقتنا قوية للغاية ولا نفترق إلا وقت النوم ثم أصبحت أقيم عندكم بشكل دائم.

كان جدك محمود عندما يراني يقول لي ما رأيك يا مروان بأن أصطحبك معي إلى الجامع يوم الجمعة للصلاة هناك وأعلمك الصلاة والصيام.

كنت أذهب معه إلى الجامع كلّ يوم جمعة.

كانت السيدة سالي عندما تجتمع مع جدتك أم حسن، تقول لها: أنت تدللين مروان أكثر مني، يا أم حسن ومروان يفضل الجلوس في بيتك أكثر مما يفضل البقاء عندي وعلى إثر محبة مروان لبيتكم أولادي كلّهم يريدون الإقامة في بيتك.

كانت جدتك تضحك هي ووالدك وتقول لها سنأخذه منك ونسجله على اسم عائلة عيسى.

تربيت في منزل تلك السيدة الطيبة سالي، وبيت أهلك كأي فتى له عائلة.

لم أشعر في أي لحظة بأني طفل وحيد ليس له عائلة أو أيّ أحد يسأل عنه، أو أن عائلته تخلت عنه في يوم من الأيام.

إلى أن قررت السيدة سالي مع أبنائها وزوجها السيد نبيل أن تهاجر إلى قبرص، بعد اجتياح العدو الإسرائيلي للبنان وتوتر الأوضاع في سورية والمنطقة بتلك الأوقات.

هاجرت السيدة سالي مع عائلتها وعائلة السيدة جانيت إلى قبرص أواخر الثمانينيات من القرن الماضي، افترقنا أنا وحسن ولكن لم أقطع علاقتي بدمشق ومع من عشت معهم أجمل أيام حياتي كنت أزوركم دائماً.

ولكن تكون المصادفات، في أوقات تكونين أنت بالمدرسة أو خارج المنزل، ولم تشأ أي مصادفة أن ألتقي بك ولا مرة، بسبب الأوضاع عندما كنت ألتقي مع حسن وعائلتك.

ولكن أتذكر أني كنت في دمشق ليلة ولادتك، سألت جدك محمود، أين حسن؟

قال: لي جدك محمود في ليلتها، إن زوجته نجلاء تلد في المشفى الفرنسي بالقصاع، ذهبت إلى المشفى وزرت والدتك ووالدك، كنت صغيرة جداً، جسدك لا يتعدى مساحة كف اليد اليسرى.

ثم ضحك السيد مروان، ضحكة باردة حزينة والدموع تغرق عينيه، كنت جميلة جداً يا صغيرتي، تفتحين فاهك الصغير لتبحثي عن الطعام بوجهك الوردي الرقيق.

إلى أن جاء هذا اليوم الذي اكتشفت أنك في قبرص، ومحتجزة في قبو بأسفل تلك المشفى.

دفعت المال الكثير للحصول عليك أنا وجانيت، عقدت عدة صفقات وشراكات مع السيد نيكولاس، لكي أستطيع إنقاذك وتخليصك من تلك الدوامة التي كنت تعيشين بها.

تعاقد السيدة جانيت مع السيد نيكولاس، كان كارثياً ومدمراً لنا، ولكلّ ما بنيناه أنا وجانيت على مدار عقود من الزمن.

لا أعلم ما السر الذي جعل السيدة جانيت، تغير من نمط العمل، الذي كنا نعمل فيه من شركات التعدين والبناء والمصانع، إلى دور الأزياء والعرض.

حيث أحبت السيدة جانيت أن تعمل في مجال الألبسة والأزياء، مبررة ذلك التغيير بأن هذه المصلحة ستدر علينا المال الوفير.

نصحتها في حينها أننا لسنا بحاجة لهذا المال، لدينا ما يكفي منه وأيضاً عملي في مجال المحاماة والشركات التجارية والصناعية التي أديرها، تحتاج إلى الكثير من العمل والتفرغ لها.

لكنها كانت تتطلع إلى الشهرة والإعلام، والخوض في مجال المشاهير، على حسب قولها بأنها امرأة ذكية لا ينقصها شيء حتى لا تكون من سيدات المجتمع الغربي الراقي أصحاب الشهرة، ودور الأزياء العالمية المشهورة، والظهور على شاشات التلفزة العالمية.

كان طموحها رهيباً يتخطى حدود الخيال.

في الآونة الأخيرة، بدأت هذه الموضة تجتاح العالم، وأصبحت حديث العصر وجميع القنوات الفضائية، لا شغل لها أو شاغل سوى الحديث عن الأزياء والموضة ومسابقات ملكات الجمال.

لذلك وقعت في شرك وفخ السيد نيكولاس، فقامت السيدة جانيت بإنشاء شركة للأزياء وألبسة نسائية ورجالية معه، وحصلت على علامات ماركات

مسجلة عالمياً، ومن ضمن هذا المشروع كان يتوجب عليها أن تأتي بعارضات أزياء، من الدول الأوروبية والشرقية، كانت تعتقد بأن لديها المال الوفير وتستطيع توفير عمل لجميع الشبان والشابات العاطلات عن العمل، بسبب الأوضاع المعيشية الصعبة التي يعيشها العالم واستقطاب الفتيات والشبان للعمل معها، في دور الأزياء لماركة مسجلة عالمياً لعارضات الأزياء، أو عاملات في المشغل، ومسابقات ملكات الجمال.

وعدا عن كلّ ذلك، التوسع في الحلم والخيال لديها في هذا المجال، وكأنها منقذة البشرية من الكوارث والمجاعات والفقر والأوبئة.

حينما سألتها لماذا وقعت عقود الشراكة مع السيد نيكولاس، من دون الرجوع إليّ، أو أن أكون موجوداً معك كي أطلع على العقود التي أبرمتها معه، وأقوم بقراءتها على أقل تقدير.

كانت بالبداية لا تجيب وتبقى صامتة وتصر على موقفها ونيتها الحسنة من هذا المشروع الذي كان حلم حياتها، وتصر بإلحاح أن تصرفها سليم وهي تعلم ما تقوم به.

فيما بعد كلما ألومها على ما فعلته كانت تردد قائلة إنه غباء وجهل منها للوقوع في أيدي الأشرار محبي المال والقتل والإتجار بالبشر.

وبما أني محامي تلك الشركة كان يفترض أن أقوم بإصدار إقامات، للعارضين والعاملين والمتسابقين المقيمين في قبرص، لكي يستطيعوا أن يتجولوا في البلاد من دون أي اعتراض على إقامتهم في مكان غير بلدهم من قبل

السلطات الحكومية هنا وتكون إقامتهم في هذا البلد بشكل رسمي وقانوني في حال أرادوا العودة إلى بلدهم، وأيضاً عند سفرهم إلى أي دولة أخرى بالعالم للترويج للبضائع التي تنتجها الشركة ولدور العرض التي سيذهبون إليها كعارضين أو مسوقين للشركة، أو دور المعارض والأزياء التي تروج لهم هذه الشركة.

وإذا كان هناك أي إشكال في جوازات سفر هؤلاء الفتيات والشبان، كان من مهمتي أن أحل المشاكل العالقة، أو أي عائق قانوني في جوازات السفر الخاص لهؤلاء الفتيان والفتيات.

أي بمعنى العبارة، في حال قد دخلت أي عارضة أزياء من العارضات إلى البلاد عن طريق الخطأ أو بالمصادفة أو التهريب بهكذا أمر في حينها عليّ ترتيب وضعها القانوني.

كان عملي في حينها بأن أقوم بتعديل صفات العمل لأسماء العارضات التي أرسلت لي، لتسهيل عملية العبور لهم.

كانت جميع أعمالنا وأوراقنا قانونية، ولا يشيبها أي شك أو ريبة.

في إحدى المرات، كنت أهيئ الاستمارات التي أرسلت لي من قبل مكتب السيد نيكولاس، للذهاب بها في اليوم التالي إلى السفارة القبرصية، ومكتب الهجرة والجوازات.

رأيت أوراق الفتيات التي يجب إرسال هوياتهم لإصدار إقامات لهم في قبرص.

من بين تلك الأسماء، التي سيتم إصدار أوراق الإقامة لها هنا في قبرص، رأيت اسمك واسم والدك ووالدتك على جواز السفر الخاص بك وصور هويتك الشخصية.

على الفور تحدثت مع جانيت بأن هذا الاسم أعرفه جيداً، وتلك الأوراق التي بين يدي تربكني وتضع الشك في رأسي.

اتصلت جانيت مع السيد نيكولاس تسأله عن اسم تلك الفتاة التي نشك في أمرها.

حينها لم ينكر وجودك هنا في قبرص.

قال إن الفتاة موجودة عنده، وسيرسلها لنا حالاً للتعرف إليها.

مرت أربعة أيام وهو يراوغ في إرسالك لنا للتعرف إليك، ثم طلبت جانيت من السيد نيكولاس اللقاء بجميع الفتيات التي قال عنهن إنهن موجودات في الفندق، والتي فزن بالمسابقة لدور العرض ولكن لم يدعها تلتقي بأي من تلك الفتيات.

ثم اكتشفنا أن السيد نيكولاس يتلاعب بنا، وأن الشركة التي كان يتحدث عنها هي شركة وهمية، لا وجود لها سوى في مخيلة السيدة جانيت، وأننا وقعنا في فخ التهريب والإتجار بالبشر.

حين رؤية اسم عائلتك، بين تلك الهويات والأوراق، أثار فضولي الشك، بدأ عقلي يحدثني بإصرار أنه يجب أن أعرف لمن هذا الاسم الذي مر أمامي ونظري لا يفارق ملامحه.

وهل هناك تشابه بين هذه الأسماء والاسم المحفور في ذاكرتي منذ الصغر؟
من خلال بحثي عن حقيقة ما رأيت، وعما كنت أبحث عنه ومعرفة حقيقة من تكون صاحبة الاسم الذي أراه أمام عيني بتأمل وتردد بالوقت ذاته، أجريت عدة اتصالات، وبحثت عن اسم ذلك الشخص الذي عشت طفولتي في كنفه وكنف عائلته.
بدأت أبحث عن حقيقتك وحقيقة ما جرى معك، كان الخبر المفاجئ، الصادم لي وإلى جانيت أيضاً بالوقت ذاته.
إذ أنك حفيدة السيد محمود جدك أبو حسن صاحب البيت الذي تربيت ونشأت مع أبنائه منذ نعومة أظفاري في البيت نفسه وبالحي ذاته.
من خلال اسم والدك حسن وكنيته ولقبه، اتضح بأن الاسم الذي أبحث عنه، هو صحيح وأنك ابنة الرجل الطيب حسن، واسم جدك محمود الذي كان يعاملني بأفضل معاملة، ولا يفرق بيني وبين أبنائه.
لم أستطع في حينها تصديق ما يحدث معي.
والشيء الأكثر خطورة، بأننا كنا أنا وجانيت متورطين في عملية الشراكة الخطيرة للغاية مع السيد نيكولاس، وعقد الشراكة المزيف.
ومعرفة الحقيقة الصعبة، التي ورطنا بها السيد نيكولاس ليقوم بعمليات خطف وتمويه لإرسال تلك الفتيات للعمل في دور للدعارة وليس في دور للأزياء.

في تلك الأثناء حاولت أن أجدك من بين كلّ تلك الفتيات اللاتي تم تهريبهن من دمشق بتلك الباخرة واتضح بأني تأخرت قليلاً حيث تم انتزاع كليتك اليسرى منك لبيعها.

وأيضاً كان من المفترض حينما تتحسن حالتك سيرسلونك مع البقية إلى أوروبا للعمل في ملاهٍ ليلية للدعارة.

أو سيرسلك إلى ليبيا أو اليمن أو شمال سورية أو أي مكان آخر في العالم يشهد صراعات ومنازعات بعد أن يفخخوا جسدك بالمتفجرات ويضعوك على أقرب حاجز وتتم عملية انتحارية لك.

كلّ السيناريوهات كانت في تلك الأوقات جاهزة فأنت وغيرك من الشبان الصغار، والفتيات والنساء اللواتي يتم خطفهم ونقلهم إلى هنا، كان هذا هو الدور المنتظر الذي سيقومون به.

بعد ترتيب موضوع حالتهم، وبعد دراسة ملف كلّ شاب أو فتاة من قبلهم حسب مواصفاتها وشكلها، واختبارها بعدة أعمال، قبل التنسيق في أي اتجاه ستكون حالتها، وأنت كنت مثلك مثل أي فتاة مختطفة ستكونين من ضمن برنامج منظم لمنظمة إرهابية واسعة، تابعة لهم تعمل كشبكة عنكبوتية معقدة جداً لا يعرف من يديرها في جميع أنحاء دول العالم، قد تدار ضمن عصابات، أو دول أو حكومات، لا أحد يستطيع أن يجزم كيف تدار هذه العصابات، ولكن الشيء الوحيد الظاهر للعيان الكلّ متورط فيها.

حتى منظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان، يوجد بينها من يعمل لصالح تلك المنظمات الدولية، والكلّ يعمل حسب مصالحه الشخصية والمنفعة المادية.

عندما قرأت اسمك واسم عائلتك والعنوان الذي أرسل لي للتحقق من تاريخ كلّ فتاة أو فتى يمر عبر خط قبرص، أثار فضولي هذا الاسم، لم تعلمي الخوف الذي أصابني بالقلق والحيرة مما كان يجول في خاطري أو بين ما كان سيحصل لك بعد ذلك.

أردت أن أخلص كلّ هؤلاء الفتيات والشبان من تلك العصابة.

أردت أن أرى وجه تلك الفتاة الصغيرة أصغر أبناء حسن التي حملتها بين يدي منذ ولادتها.

رأيت صورتك وبطاقتك الشخصية تذكرت وجه أمك نجلاء ووالدك حسن وأيضاً عندما كنت طفلة صغيرة في اللفة، تذكرت جسدك الصغير حين حملتك بين يدي..

تتالت الصور والذكريات، حينما كنت أداعبك وأحملك إلى دكان أبي جابر أشتري لك المأكولات اللذيذة، عند زيارتي لكم في دمشق.

كنت تفضلين أن تبقي في جواري، على الرغم من وجود والدك وأمك حولك وأخيك سمير، كنت تفضلين البقاء معي، تبكين عندما أترك يدك، تتعلقين بي ولا تريدين أن يحملك عمك سامر، لقد تربيت أنا يا إنجي في بيت جدك محمود مع والدك حسن، كان بالنسبة لي الأخ الذي لم تلده أمي، بقيت في

بيت جدك محمود إلى وقت أنهيت دراستي أنا وحسن في كلية الحقوق بجامعة دمشق، كنا أصدقاء أنا ووالدك لا نفترق سوى وقت النوم كأننا توأم واحد.
الجميع يعلم عندما بدأت الحرب في سورية، عام أحد عشر وألفين، قلت الاتصالات وانقطعت العلاقات بين الناس، لكن ظلت علاقتي مع والدك حسن قوية، رغم كلّ الخلافات بوجهات النظر حول من هو مؤيد ومن هو معارض، أو لكلّ ما يحدث من صراع داخل البلد من منازعات وتباين في وجهات النظر.
لكن في حينها حتى أستطيع أن أتأكد من الشك الذي كان يشغل تفكيري أجريت عدة اتصالات مع أخيك سمير، لأنه في حينها لم يكن أحد سيخبرني بما يجري في منزلكم سوى سمير، هو الوحيد الذي لا يستطيع أن يخفي عني أي شيء يثرثر بكلّ كبيرة وصغيرة، علمت حينها أنك اختفيت عن المنزل و لا أحد يعلم عنك شيئاً.
كان والدك والجميع يتوعدون بالقصاص أو بالقتل لك وللرجل الذي هربت معه، هكذا كان الظن حينها، حفاظاً على شرف العائلة.
في حينها خفت كثيراً من أن يمسك أي مكروه بعمل لا ذنب لك فيه سواء كنت أنت أو غيرك من الفتيات أو الشبان الذين يتم خطفهم، والتنكيل بهم.
حاولت إخبارهم أنك موجودة في قبرص ولكن ما كان أحد سيصدقني، كان الأمر صعباً جداً أن يصدقوا ما حدث معك، مع عقلية متزمتة

ومتحجرة، أو بإخبارهم حقيقة ما جرى لك أنت وزميلتك هديل في حينها، خوفاً من عدم تصديق ما كنت سأقول لهم وأنت تعلمين العقلية المتحجرة عند والدك وعمك سامر وأخيك سمير وباقي أفراد عائلتك، فكرت بأمر وحسبتها بشكل جيد.

ستكثر الأسئلة، ولن أستطيع الإجابة عنها وستثار حولي عدة إشارات استفهام من جميع الجهات التي تتمنى سقوطي في أي لحظة لذلك أبقيت على سر وجودك في بيتي.

الأمر الذي ساعدني أكثر بأنك لا تتذكرين شيئاً عن حياتك الماضية.

عدا عن كلّ ذلك كنت الدواء الوحيد لشعور الذنب الذي كانت تعيشه جانيت من أمر الفتيات والشبان الذين تتحمل مسؤولية ما حدث معهم، كانت جانيت يوماً بعد يوم تزداد تعلقاً وارتباطاً بك.

على ما أظن بأنك لاحظت مقدار الاهتمام والرعاية التي كنت تحظين بها من قبلها، وحجم المحبة الكبيرة الذي أولته لك.

كان السيد مروان يتحدث بألم شديد، والحزن يملأ عينيه، والدموع تغرق وجنتيه.

أتعلمين يا إنجي، كم من رسائل كتبها المهاجرون ولم تصل؟

وصلت جثامينهم وأرواحهم عنان السماء، ولم تصل رسائل السلام إلى ذويهم.

كيف نبحث يا إنجي عن الأمن والسلام، والعقول تأبى التحديث في أفكارها وأخلاقها؟

ثم خطر على بالي بأن أسأل السيد مروان، عن أمر محير كان يشغل تفكيري.

كيف اختفت الندوب والقروح التي كانت تغطي جسدي أثناء الاحتجاز بقبو المشفى؟

رد على سؤالي، عندما تم نقلك من المشفى إلى القصر، أرادت جانيت أن تبقيك تحت تأثير المخدر طوال فترة علاجك، كي لا تتأزم نفسيتك أو تتذمرين من البقاء في السرير بالآلام التي تشعرين بها.

جاءت لك بأشهر الأطباء في قبرص، ليتم علاجك في أقصر وقت ممكن.

بقيت جانيت معك خمسة عشر يوماً، تهتم بك وترعاك كأنك طفلتها الوحيدة.

اسمعي يا بنتي في حال تم القضاء عليّ يا إنجي، فإن جميع ما أملك من الثروة والمال، ستذهب سدى، ستكون الكارثة المدمرة للكثير من العائلات الفقيرة، ستتضرر هذه الأسر من هذا الانهيار، لأن جميع هؤلاء الفقراء، سيخسرون، وظائفهم، ورواتبهم، والمعونات والخدمات المالية التي أقدمها لهم، والأرقام السرية لا يعلم أحد بها غيري.

نظرت بوجه السيد مروان في حينها، وأنا أخاطب نفسي: لو أن بي قوة ذي العلم في مجلس سليمان، أو عفريت من الجان، لكنت حولته إلى فأر صغير، من شدة الغضب الذي شعرت به نحوه.

أجبته بغصة خانقة والدمع يغرق مقلتي.

بعد كلّ هذا الكم الهائل من المعلومات التي عرفتها عنك وأنت تعلم حقيقة ما حدث معي، وما كان سيحدث لي.

أخفيت هويتي الأصلية عني، تركتني في وهم الضياع والشتات، وحرمتني من وجودي بين أفراد عائلتي، وموطني الذي عشت به أول سنين طفولتي، لم تعد تهمني أو تعني لي الأشياء الصغيرة أو الكبيرة التي تهمك بأي شكل من الأشكال.

لا تتكلم كثيراً عن الفقراء والمحتاجين والأحياء الفقيرة، لأن الأغنياء أو الأثرياء لا يسيرون بشوارعها ولا بأسواقها، ولا يعرفون أحياءها.

لماذا لم تحاول أن تخبر أمي بالحقيقة الكاملة، حسب ما رويتها لي الآن، كانت هي على الأقل، أخبرت والدي حسن وساعدتني في العودة إليهم.

لا تتحدث عن الظلم أو عن المظلومين، لأن أصحاب البذخ والجاه والثراء، لا يضيفون المدافعين عن حقوق الإنسان على صفحاتهم، أو مواقع التواصل الاجتماعي الخاصة بهم، لأنهم بكلّ بساطة يعيشون في عالم صنعوا حوله جداراً من المال المسروق، يشعرهم بفخامة البذخ والجاه و الثراء.

الأثرياء يا سيد مروان ضمائرهم لا تتألم أو تكترث من نشر صور الجياع على الطرقات، أمام كاميرات التلفاز لأن الأثرياء ليس لديهم الوقت الكافي لقضائه أمام شاشات التلفزة، أو مواقع التواصل الاجتماعي، كي يشاهدوا مأساة البؤس والألم، لأنهم بكلّ تواضع، لديهم مناسباتهم الحميمة الخاصة

بهم، التي تقضي على الوقت الممل الذي يعيشه هؤلاء الفقراء المساكين، وهم يحسبون كم رغيف من الخبز يجب أن يشتريه لإطعام أفواه أولاده الصغار.

لا تكثر الكلام كثيراً عن هذا الموضوع يا سيد مروان.

لماذا لم تحاول أن تخبر أمي بالحقيقة الكاملة حسب ما رويتها لي الآن، وما جرى من عملية خطف وسرقة لأعضاء من جسدي.

كانت أمي على أقل تقدير، حاولت أو أخبرت والدي حسن لتساعدني في العودة إليهما، أو كانت تعاطفت معي وبقينا على اتصال دائم معاً تشعرني بحنانها وعطفها.

لماذا أبقيت الأمر سراً، وصمت كلّ هذه السنين؟

لم تهتم يا سيد مروان أنت والسيدة جانيت، لما أعانيه من خوف ووحدة وقلق، عدا عن حالة الشتات والضياع الذي تنتابني بين الحين والآخر.

رد السيد مروان على سؤالي لهُ، بضحكة ساخرة وابتسامة باردة، سار نحو نافذة مكتبه ووقف أمامها.

هل تظنين يا آنسة انجي، بأن السيناتور نيكولاس سيدعك تتواصلين مع أحبائك في دمشق، وكأن شيئاً لم يحدث أو لم يكن.

لا يا صغيرتي أنت وعائلتك ستكونون في خطر.

كان من أحد شروط تحريرك في ذلك اليوم، السرية التامة والكتمان عما جرى معك، أو ما نعرفه عنه، وعن أعماله المشبوهة، وإلا ستكون حياتك مع حياة عائلتك في خطر.

لا تظني يا إنجي أن أمر تحريرك وبقائك في منزلنا كان بالأمر البسيط أو السهل.

لا تحسب عند هؤلاء البشر تجار المال والبشر بالنيات الحسنة، لكلّ شيء رأس مال يجب أن يدفع ثمنه وأنا والسيدة جانيت دفعنا ثمن تحريرك الثمن الباهظ وليست إقامتك معنا بالسهل أو الهين كما تعتقدين، أنا وجانيت دفعنا ثمناً باهظاً مقابل أن تبقي معنا.

هل فكرت يوماً لماذا لا يوجد أحد من الخدم في هذا القصر الكبير.

أو لا نستقبل أي أحد من الضيوف حتى أبناء عمتها سالي أو نقيم حفلات السهر والسمر في هذا القصر، لأننا أنا وجانيت أنهينا خدمات من كان يعمل بهذا القصر خوفاً من التجسس علينا أو عمليات اغتيال مفاجئة لنا..

أبقينا على عدد قليل منهم مثل ماري ودانيال ومانويل، لأنهم هم بهذا القصر منذ أن ولدوا، كانوا يخدمون السيد جوني زوج جانيت قبل مماته ويعرفون الصغيرة والكبيرة في هذا القصر.

لم يقنعني السيد مروان بكلّ ما قاله، بل كان السؤال الموجه لهُ والأكثر جدلاً في تفكيري لحظتها:

هل ستقنعني يا سيد مروان بأنك حصلت على هذا المنزل الكبير بعملك في المحاماة؟

وأن كلّ هذا البذخ والجاه والثراء الذي تعيشه، بجهدك وتعبك، أو أنك حصلت عليه من العمليات المشبوهة التي تديرها سرا.

لا تقل لي: إنك لا علاقة لك بعمليات الخطف والتهريب الذي تتنصل منهم الآن.

استدار السيد مروان نحوي وابتسم قائلا.

لو أقضي العمر كلّه يا آنسة إنجي وأنا أعمل ليلاً ونهاراً، لن أستطيع أن أشتري مدخنة من مداخن هذا القصر أو علبة كبريت واحدة لأشعل تلك المدخنة.

تفاجأت من الرد المفاجئ والمستنكر الذي وجهه لي.

ثم سألته باستغراب ولكن كيف حصلت عليه؟

سحب السيد مروان سيجارة من علبة السجائر الموجودة أمامه على الطاولة، ثم أشعلها بعود الثقاب الخشبي ونفث نفساً قوياً منها وهو يهز برأسه نحو الأسفل.

عندما جئنا من دمشق إلى قبرص مع السيدة سالي" الرحمة والسلام لروحها" مع عائلة السيدة جانيت وأبيها وأمها كانت جانيت فتاة جميلة جداً وذكية تمتلك الكثير من الجمال والرشاقة والوسامة وقد أخبرتك منذ قليل بأنها الابنة الوحيدة لدى والديها السيد جوزيف.

كانت جانيت، الرحمة والسلام لروحها الجميلة، ما تزال شابة صغيرة في مقتبل العمر.

والسيدة جانيت كانت وحيدة، عائلتها ليس لها أخ أو أخت لذلك كانت تعتبر وجود أبناء عمتها سالي، بمكانة الإخوة الأكبر لها.

كنا جميعنا أنا وجانيت وأبناء عمتها الثلاثة داني وجورج وبطرس، أسرة قوية متماسكة في السراء والضراء.

في إحدى المرات لصيف عام تسعمئة وثلاثة وتسعين وألف كنا هنا في قبرص آنذاك، وما نزال مبهورين بأننا في مكان من أجمل مدن العالم.

تعرفت جانيت إلى أصدقاء لها، عن طريق الكنيسة التي كانت تتردد عليها هنا في نيقوسيا كلّ يوم أحد، أو في الاحتفالات الدينية الخاصة بهم ثم اتفق الأصدقاء أن يقوموا برحلة صغيرة إلى أحد المنتجعات والفنادق السياحية في قبرص.

حينها قرر الأصدقاء أو خططت هي وزميلاتها للإقامة في أحد المنتجعات في قبرص اسمه "أنا يابا".

في ذلك المنتجع كان يوجد رجل ببداية الستينيات من العمر كان رجل أعمال مشهوراً جداً من أصول رومانية، تعرفت إليه جانيت وأحبته، ومن ثم تقدم لخطبتها، كان يكبرها بأعوام كثيرة، ولكن هذا الرجل الستيني كان يملك ثروة طائلة من المال والأملاك، تحلم بها أي فتاة في مثل سنها أن تمتلكها.

في البداية حين تقدم لطلبها من والدها جوزيف وعائلتها اعترض الجميع على فكرة الزواج من ذلك الرجل الستيني لفارق العمر الكبير بينهما، ولن ننسى والدها الذي كان يعترض على أي شيء يجري في العائلة، بينما جانيت

أصرت على موقفها وأعلنت الارتباط به، ثم حددت موعداً للزفاف رغماً عن معارضة عمتها سالي وزوج عمتها ووالدها والجميع.

أيضاً أنا كنت من أشد المعارضين لهذا الزواج غير المناسب لها، من حيث العمر والشكل، كانت جانيت أجمل من جوني بألف مرة.

بعد قرابة خمسة أعوام على زواجها من جوني الكبير، هكذا كانت تناديه، توفى الرجل على إثر أزمة قلبية مفاجئة.

لم تنجب جانيت أولاداً من الرجل العجوز، رغم محاولاتها المتكررة، خلال الخمس سنوات التي قضتها معه، حاولت أن تتعالج بمختلف أنواع العلاج من أجل الإنجاب ولكنها لم تستطع الإنجاب.

وبما أن جانيت هي الوريثة الشرعية الوحيدة لزوجها المرحوم جوني الكبير، ورثت جميع ما يملكه الزوج الراحل.

كانت جانيت خريجة كلية التجارة والاقتصاد بجامعة دمشق وأنا متخرج من كلية الحقوق بعلامات ممتازة، قررت جانيت بعد وفاة زوجها أن أكون المحامي الوحيد لها في إدارة أعمال السيد جوني الكبير بعد مماته.

ثم عرضت عليّ أن أقيم معها في هذا القصر الكبير حتى لا تشعر بالوحدة والملل، وبما أننا أنا وجانيت أصحاب مشروعات زوجية فاشلة.

خاصة بعد زواجي وانفصالي لمرتين متكررتين، كانت تريد أن تجد أحداً يقيم معها في القصر الكبير.

ثم بدأنا العمل معاً، كنت أعمل معها ليلاً ونهاراً، كانت جانيت وحيدة ليس لها وريث، سوى أبناء عمتها سالي، داني وبطرس وجورج.

في حال إذا ماتت جانيت ستذهب جميع ثروتها وثروة المرحوم زوجها إلى الجمعيات الخيرية، لذلك طلبت مني تقسيم جميع ما تملك مناصفة بينها وبين أبناء عمتها وأنا من ضمنهم بما أني الابن الشرعي لعائلة السيدة سالي بعد التبني لعمتها.

وتم تحويل جميع ما تملك إلى حسابنا الخاص، وتوزيع الثروة بين أبناء عمتها وبيني.

وكان هذا القصر من ضمن الحصة الذي حظيت أنا بها أثناء القرعة.

على أمل أن أتزوج في يوم من الأيام، لتكون لي عائلة وأبناء تشاركنا هذه الثروة الكبيرة، ومن خلال عملنا معاً كانت ثروتنا تزيد أرباحها عاماً بعد عام، أضعاف ما حصلت عليه من ميراث زوجها.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي علمت بوجودك في قبرص، وأصرت أن تتعامل هي بنفسها مع عصابة نيكولاس لتخليصك من الأسر.

كنت أسألها، لماذا أنت التي تهتمين بتلك الفتاة؟

نستطيع أن نحضر لها عشرات الخدم للاهتمام بها، كانت تبتسم ابتسامة باردة، وهي تقول إنها الابنة التي حرمت من إنجابها.

لو أنك تزوجت يا مروان، وأنجبت لنا أولاداً، كان عندنا أحفاد الآن نهتم بهم ونرعاهم، و لكن أنت و أنا ليس لنا حظ في الإنجاب.

كنت أقول لها ممازحاً، لقد تزوجت مرتين ولم أرزق بالأولاد وأنت يا جانيت بدل من أن تتزوجي من رجل عجوز، كان الأفضل لك أن تختاري شاباً من عمرك على الأقل للزواج، تعيشين معه أفضل سنين العمر، بدل زوجك جوني الكبير، ها هي الثروة التي كنت تحلمين بالحصول عليها ما نفعها الآن بعد مرور هذا العمر، من دون أن ننجب أولاداً نتمتع نحن وهم بها.

كانت جانيت في كلّ مرة أذكرها بالأمر تحزن كثيراً، وهي تتذكر كلام والدها رحمة الله عليه.

وهي تردد كان يجب أن أصغي لكلام أبي، وأن أتزوج مرة أخرى بأي شاب من الشبان الذين تقدموا لطلبي للزواج وأنجب منه أولاداً بعد وفاة جوني، و لكني غبية لا أعلم لماذا أندم الآن، على كلام والدي جوزيف وقد مرت على هذا الكلام السنين الطويلة.

هناك أشياء كثيرة تغابيت عنها في هذه الحياة يا مروان.

أحبتك جانيت يا إنجي كثيراً، وتعلقت بك كما لو أنك ابنتها الحقيقية، لا أعلم سر تلك العاطفة القوية عند تلك العائلة، هي تشبه عمتها سالي بكلّ شيء في الجمال والذكاء والحنان الزائد.

كان السيد مروان يتحدث عنه وعن السيدة جانيت وأنا في الوقت نفسه أتذكر كلام الدكتور مهند وأحاول أن أقارن بين الروايتين لأن كلّ رواية تختلف عن الأخرى كاختلاف الليل عن النهار لا مقارنة بينهما.

ثم خطر فجأة على رأسي بأن أسأله عن يعقوب، وما حدث معه.
و لماذا أراد إنهاء علاقتي به؟
حينما سألته عن يعقوب وسبب تركه لي.
وقف أمامي السيد مروان ثم وضع يديه على أكتافي، مخاطباً بنبرة حادة فيها القوة والصدق بكلامه، انظري في عيني يا إنجي ستخبرك إذا كنت صادقاً معك أم أكذب عليك.
فأنا أو جانيت لا علاقة لنا بما جرى مع يعقوب وإبعاده عنك.
كان يعقوب متورطاً مع الدكتور مهند، بينما جانيت استطاعت تخليصه من عصابة السيد نيكولاس.
جانيت تعلم بعلاقتك بيعقوب، وتتمنى أن يأتي اليوم الذي يتقدم بطلبك منا للخطبة أو الزواج، ولكن دخول الدكتور مهند على الخط، وتهديده ليعقوب بالابتعاد عنك جعل من أمر اللقاء بك أمراً صعباً.
بما أنك رفضت الحديث مع يعقوب أو الإصغاء لما كان سيخبرك به عما حدث معه ولماذا أراد إنهاء علاقته بك؟
كان من الطبيعي الانفصال وإنهاء الموضوع بهدوء وحذر في حينها فضل يعقوب الابتعاد عنك وعن المشاكل التي ستلحق به هو وعائلته إذا استمر هذا الارتباط بك.
سألته إذا كان يعقوب يعرفك جيداً أنت والسيدة جانيت.

رد السيد مروان أجل كان الدكتور مهند يريد توظيفه في مراقبتك، والدخول عن طريق يعقوب للقصر، لأخذ جميع الملفات والوثائق التي تثبت إدانة السيد نيكولاس بعمليات الخطف والتهريب.

الشاب كان يحبّك بطريقة جنونية، رفض رفضاً قاطعاً العمل معه وعرض حياته للخطر لإنقاذك من الوقوع بالشرك وما كان يخطط له السيد نيكولاس مع الدكتور مهند.

لذلك انسحب من حياتك بطريقة مهذبة لا تدعو للشك أو الريبة أو الإرباك لك مع عائلتك.

إن يعقوب شاباً راقياً وجميلاً وابن عائلة محترمة.

كنت أنا وجانيت ننتظر اللحظة التي يتقدم بها يعقوب لخطبتك منا، وأن ترزقي يا انجي بأولاد من يعقوب يعيشون معنا في هذا القصر الكبير، تملأ صورهم جدران هذا البيت وأصوات ضحكاتهم تدخل الفرحة والبهجة إلينا.

يا ابنتي، ليس كلّ ما نفكر به أو نخطط له ونتمناه يتحقق.

وجود الدكتور مهند والسيد نيكولاس، أضاع منا هذا الحلم الذي لطالما أنا والسيدة جانيت تحدثنا فيه لأكثر من مرة.

لا تصدقي كلام الدكتور مهند يا انجي، إنه عميل السناتور نيكولاس فلا يستطيع ذلك الوغد أن يأخذ أي ملف من هذه الملفات حتى لو خسرت حياتي، هذه الملفات والمستندات هي الوحيدة التي تدينه وتنهي عذاب

الكثير من الفتيات والنساء والشبان الصغار في العمر، من شر وخبث هذا المختل، وسيدفع هذا الوغد الخسيس الثمن الباهظ جراء قتل جانيت.

هذا المختل المحتال مع من يتعاون معهُ، لا يستطيع أن يزيحني من مكاني ويسلب الثروة التي جمعتها أنا وجانيت على مدار عقود.

جلستُ على الكنبة وبدأت أبكي وأنتحب.

كان كلّ شيء يدعو إلى القهر والحزن الشديد.

كنت أسأل نفسي لماذا أبكي هل على فراق يعقوب أو على موت السيدة جانيت أو عن طريقة الخطف الوحشي والتنكيل بي أو الابتعاد عن بيت أبي وأمي أو عن حالة التشتت والضياع الذي أشعر به الآن.

عقلي وقلبي لا يستطيعان تحمل كلّ هذا العذاب والألم الذي كنت أشعر به في لحظتها.

على الرغم من كلّ الوجع الذي كنت أشعر به حين احتجازي بالمشفى إلا أن هذا الألم أكبر بكثير من ذلك الجرح أو الوجع الذي كان قد أصابني حينها.

كيف لي أن أصدق كلّ ما أخبرني به السيد مروان وما أخبرني عنه الدكتور مهند.

اقترب نحوي السيد مروان، وابتسم قائلاً: اسمعي يا إنجي العمر قطار سريع، والذكريات هي التقويم والنافذة التي نطل بها على حياة مرت معنا سريعاً، لا

تبقي عالقة في الماضي ولا تكترثين للكثير من الأسئلة، ستقعين في فخ الزمن و الوقت.

سيضيع منك الكثير من الأوقات الجميلة وأنت تبحثين عن الحقيقة والصواب ثم ستندمين لجرك نحو السراب.

الحياة أمامك طويلة يا انجي، كتب لك عمر جديد وحياة أجمل عيشيها بواقعها حسب ما فرضتها الحياة عليك من قوانينها الجديدة، اتركي الماضي يمضي مع ما مضى في مهب الريح.

لن يفيدك الماضي بشيء سوى الحزن والأسى والألم والغضب الخانق.

نظرت بوجه السيد مروان الحزين، ثم استأذنت منه وصعدت إلى غرفتي.

كان كلّ ما يمر أمامي في تقاطع خطر كضربات كرات البلياردو، جميع الصور في حينها غير مكتملة وغير مقنعة.

كانت الساعة تشير إلى الحادية العشر والنصف ليلاً.

اتصلت بصلاح وطلبت منه رقم يعقوب الجديد لأن يعقوب بعد ذلك الحادث غيّر عنوان منزله وأيضاً قد غيّر الرقم الخاص به.

في البداية رفض صلاح أن يرسل لي الرقم وشعرت بالمراوغة والتلبك.

قد يكون يعقوب طلب من صلاح ألا يعطي رقمه لي، في حينها فكرت كثيراً في الموضوع بأنه يجب أن ألتقي مع يعقوب وأضع النقاط فوق الحروف، كي أستطيع حسم الأمر ومعرفة حقيقة إحدى الروايتين، ولا يمكن أن أجد ضالتي إلا عن طريق يعقوب.

هو الوحيد الذي يستطيع إنهاء الشك الدائر في عقلي بين صدق وتكذيب أو صحة رواية السيد مروان أو ما أخبرني به الدكتور مهند.

في صباح اليوم التالي، كانت ماري قد أعدت طعام الفطور كالعادة.
كان الصباح بارداً وحزيناً من السواد الذي أرتديه حداداً على السيدة جانيت.
لم تعد معنا أو موجودة على طاولة السفرة ولا هي أيضاً بجانبي لكي توقظني عند الصباح وتجهز فنجان القهوة وأن تختار لي ما سأرتديه إلى الجامعة.
كان هذا الصباح كئيباً لا يحمل أي ملامح للفرح والبهجة كلّ شيء فيه حزين بفقدان السيدة جانيت والحزن بادٍ على وجه السيد مروان.
بعد مرور الوقت والانتهاء من تناول طعام الفطور، أخبرني السيد مروان بأنه يريد التحدث معي في أمر هام جداً.
اتجهت معه إلى مكتبه وهو يسير أمامي، بينما كانت ماري تقول له هل أحضر لك كوباً من القهوة الساخنة، إلى المكتب يا سيد مروان.
رد عليها لا أريد أي شيء الآن.
ثم توجهت معه إلى مكتبه وهو يخاطبني بصوت فيه بحة خانقة.
أريدك يا انجي أن تري هذه الأوراق، لقد أصبح الآن كلّ شيء باسمك وتحويل كلّ ما أملك أصبح في رصيدك.
ذهلت مما رأيت وسمعت.

قلت له: أنا لا أريد أي شيء من هذا المال.

فهو ملك لك أنت وحدك وأيضاً من يستحقه أكثر مني هم أقرباء السيدة جانيت.

الشيء الوحيد الذي أريده منك الآن هو أن تعيدني إلى دمشق، وتخبر عائلتي بوجودي هنا في قبرص.

و تقول لهم كلّ ما جرى بالحقيقة كاملاً، ما حدث معي خلال فترة غيابي عن منزلهم، بأنها عملية خطف مدبرة و إجبار لي.

هز برأسه كالعادة، وأخبرني بأننا سنسافر معاً عما قريب إلى دمشق، في أقرب وقت ممكن.

لكن يجب أن أقبل الآن بكلّ المعطيات التي تحدث لنا، بينما السيد مروان يرى في الأيام القليلة القادمة ما سيحدث معنا وهو متأكد بعد هذا اليوم بأنه سيتم التخلص من الجميع.

يجب من باب الحيطة والحذر، أن يقوم بهذه الإجراءات الضرورية اللازمة، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في حال حدث له ما حدث للسيدة جانيت.

وقعت ثم بصمت، على جميع الأوراق التي طلبها مني، أن أوقع عليها السيد مروان.

ثم فتح درج مكتبه، أعطاني مفتاح خزنة له في مركز الأمانات في البنك بالعاصمة.

كان صوته مخنوقاً، يرتجف وهو يخبرني بأن أبقي كلّ هذه المعلومات سرية، لا يجب أن يعلم بها أحد فهناك ملفات خطيرة بحوزته متورط بها كلّ من الدكتور مهند والطاقم الطبي التابع له والسيناتور نيكولاس والكثير من أناس لهم مكانة خاصة في المجتمع متورطين في عملية الشراكة بينهم.

قال لي اذهبي الآن إلى جامعتك ونلتقي على العشاء.

ودعت السيد مروان وقدت سيارتي إلى الجامعة، وأنا في طريقي إلى الجامعة، شعرت بأن هنالك أحداً يسير خلفي كنت أظن بأن السيد مروان وضع أحداً ليراقبني من جديد.

وقفت بالسيارة عند المنعطف الأيمن للحديقة العامة، في وسط المدينة وبقيت بها.

ثم سمعت صوت طرق على زجاج نافذة السيارة التي كنت أقودها، وأنا كلّي تمرد وغضب مما يجري معي من أحداث غريبة ومريبة، وأنا أحاول أن أعلم من الذي يستطيع أن يتعقب خطواتي من دون أن يعلم أني كشفت أمره.

كان الدكتور مهند يطرق بأصبعه على زجاج نافذة السيارة.

فتحت له النافذة، فألقى السلام والتحية.

ثم قال لي سأنتظرك في مقهى "مارسوا" إذا ليس لديك أي مانع يا آنسة هزار.

كان المقهى بوسط المدينة يبعد عن مكان وقوفي في وسط المدينة أقل من عشر دقائق وصولاً بالسيارة إليه.

قلت له عندي محاضرة بالجامعة بعد ساعة أراك في المقهى.

ولكن كان عدم لقائي به بالموعد الذي حدده الدكتور مهند، بعد عشر دقائق، ليس لأني كنت سأحضر المحاضرة بل كنت في توتر شديد للقاء مع يعقوب الذي رفض صلاح أن يرسل لي رقمه الجديد أو حتى عنوانه الحالي.

بعد جدال عقيم وطويل اتفقت مع صلاح بأن يرسل لي إشارة عند خروج يعقوب من الجامعة.

وصلت إلى الجامعة ثم وقفت أنتظر يعقوب أمام الباب الخارجي للجامعة التي يدرس بها يعقوب، انتظرته قرابة نصف ساعة لخروجه من الامتحان العملي في المختبر.

رأيته يسير بجانب فتاة طويلة القامة وجميلة القوام، رائعة الجمال، ظننت بأنه ارتبط بها.

عندما رآني ابتسم ابتسامة باردة، فمن ثم اقترب وألقى السلام والتحية عرفني على صديقته الجديدة اسمها جورجيت من اليونان.

اعتذرت من صديقته الجديدة، لأنني أريد التحدث قليلاً أنا ويعقوب لوحدنا بموضوع خاص.

في البداية، رفض يعقوب التحدث معي في أي موضوع على انفراد، مخاطباً إياي بحدة، أنه مشغول ببعض الأعمال الخاصة به، تركني واقفة بمكاني وسار مع صديقته الجديدة من دون أي اهتمام لما طلبته منه.

ثم ما لبث يعقوب أن غير موقفه وعاد نحوي قائلاً، إنه قبل بالطلب الذي جئت من أجل التحدث به معاً.

سرنا معاً باتجاه الكافيتريا المقابلة للجامعة، هذه المرة كان كلّ شيء مختلفاً عن سابقه، لم نجلس على طاولتنا المعهودة، التي كانت شاهداً صادقاً على مشاعر وأحاسيس نبيلة من الحبّ والمودة والعشق، الذي استمر لمدة من الزمن.

كنت أثناء اللقاء به بعد مدة من الغياب والانفصال في أشد التوتر والقلق لما سيخبرني به، وحقيقة ما حدث أو ما جرى له والسبب الرئيسي في انفصالنا.

بقينا في صمت قرابة خمس إلى عشر دقائق ننظر كلانا بالآخر ونراقب الأجواء حولنا.

هل من أحد يراقبنا أم أننا أحرار؟

نستطيع أن نتابع حديثنا دون حدوث أي موقف محرج لكلا الطرفين.

بدأت في خلق أحاديث عابرة، كي تجذب أحاديث شائقة فيما بيننا كان لقائي بيعقوب عادياً، لا يوجد فيه أي شيء باهر أو يدعو للاستمرار في هذا اللقاء البارد، أجوف المعاني باختصار.

ثم سألته عن السيد مروان ما رأيك به؟

هل حدث بأن التقيت به في أي مرة من قبل.

لاح برأسه يميناً وشمالاً، بأنه لا يعرف السيد مروان بشكل شخصي ولم يلتقِ به أبداً ولا مرة، لكنه بدأ بمعرفته عندما ارتبط بي وكنت أتحدث أنا

معه عن السيد مروان والسيدة جانيت، وإنما كان يشاهد صورهما في الجرائد والمجلات.

بدأنا في سرد الأحاديث وتبادل ما مر خلال الأشهر الماضية التي انفصلنا عن بعضنا بعضاً إلى أن طلب مني معرفة كيف ماتت السيدة جانيت، ساد الصمت للحظات معدودة فقط.

ثم طلبت منه أن يخبرني عن سبب غيابه والرحيل بالابتعاد المفاجئ وإنهاء علاقة دامت مدة طويلة من الزمن.

وما علاقته بكلّ من السيد مروان والسيدة جانيت.

قال إنه لا يعلم أي شيء عنهما وأن ما أدى إلى انفصاله عني كانت لأسباب خاصة به وحده.

شعرت كأني أنده في بئر خاوية، جوفاء، لا ترد إلا بالصدى وأن الوقت الذي حاولت أن أعلم منه أي شيء يضيع سدى.

نهضت من مكاني وودعته للمغادرة من دون أن أستفيد من هذا اللقاء أي معلومة تفيدني في معرفة ما جئت لمعرفته..

قبل أن أصل لباب المقهى سمعت صوت يعقوب ينده لي باسم هزار.

تجمدت في مكاني، شعرت بدوار يلف الأرض من تحت أقدامي.

ما هذا الذي سمعته للتوّ كصدى البحر؟

بصعوبة بالغة استدرت نحو الصوت وعدت إليه، ثم أعاد ذكر اسم هزار مرة أخرى؟

أنت اسمك هزار أليس كذلك، وليس إنجي؟
سألته من أخبرك بهذا الاسم؟
رد يعقوب بألم وهو يطأطئ رأسه نحو الأسفل، دون النظر في وجهي.
قائلاً لي: هذا ما أخبرني به الدكتور مهند، خلال فترة احتجازي في مكان غريب وموحش.
في حينها أدركت أنه عاش الألم الذي عشته في تلك الأيام التي قضيتها بأسفل المشفى.
إن ما أخبرني به السيد مروان، كان حقيقة واقعية مؤلمة يبدو أن التاريخ يعيد نفسه، بالواقع المؤلم، شعرت به في لحظتها وحزنت من نفسي كيف كنت أشك في نيات وصدق مشاعر السيد مروان والسيدة جانيت.
شعرت بالذنب الكبير تجاه شخصين أعطياني من الحبّ والوفاء مالم يعطني إياه أي أحد في هذا العالم المظلم.
جلست أمام يعقوب والدموع تغرق وجهي.
لا أعلم لماذا انفجرت في البكاء برعشة خانقة ضاقت بنفسي.
أخبرني يعقوب كيف تم خطفه ووضعه في مكان مظلم ثم طلبوا منه بأن يخبرهم عن كلّ ما يعرفه عن السيد مروان والسيدة جانيت وعني أنا بشكل خاص، وهل يعرف ما يوجد داخل القصر.
بعدما أخبرهم بأنه ولا مرة دخل لهذا القصر وأن موضوع الارتباط بيننا طويل وهو سابق لأوانه.

وضعوا له خطة كي يدخل للقصر ولكن كان مصراً على الرفض.
ثم أطلق سراحه لأسباب لا يعرفها.
لم أخبر يعقوب بأن السيدة جانيت، هي من أنقذت حياته دفعت المال الكثير لتحريره، بينما كانت هي كبش فداء في هذه العملية الصعبة.
بعد مرور الوقت نسيت الموعد المحدد مع الدكتور مهند ولم أذهب للقاء معهُ، عدت إلى البيت وأنا أرتب لسهرة جميلة مع السيد مروان والسيدة ماري والسيد دانيال والسائق مانويل.
كنت أريد ان أشعر بأننا عائلة واحدة ولا شيء سيفرقنا إلا الموت ولا أريد أن أكون بوضع سيدة القصر أنا والسيد مروان، وهم مجرد خدم عندنا.
كنت أريد أن نجتمع مع هؤلاء الناس الطيبين هذه الليلة كعائلة محبة، نشرب نخب البقاء على قيد الحياة بعد خلاصنا من المحنة التي كنا نمر بها على مدار الأيام الماضية.
قبل أن أصل إلى الطريق الواصل عند تقاطع الطريق من الجهة الشمالية الغربية للقصر، سمعت صوت سيارات الإسعاف، وصفارات سيارات الشرطة تطلق أصوات صفارات النجدة، كانت سيارات الإسعاف تمشي أمامي بسرعة تقطع كلّ الدروب على ذات الطريق المؤدي إلى القصر.
أسرعت أكثر بقيادة السيارة بسرعة جنونية.
حين وصلت إلى باب القصر رأيت الناس، متجمهرة أمام الباب، تقف حائرة خائفة مما جرى من إطلاق النار وسماعهم لأصوات المتفجرات القوية.

كنت أسمع تردد أحاديث وأصوات مختلفة، منهم من كان يقول ماتوا جميعاً، ومنهم من كان يقول لا لا يزال هناك أحياء، كان الحدث مرعباً، لا يمكن وصفه حتى في التمثيل بدور السينما العالمية، لا يمكن أن يتحمل أحد رؤية هذا المنظر أو الشعور به، بأن ترى جميع من تعرفهم وتلتقي بهم كلّ يوم قد فارقوا الحياة.

أو لم يعد هناك من تتحدث معه أو أن تسمع صوته أو تعاتبه لتختنق كلماتك كي لا تجرح مشاعره.

يبدو أن الدكتور مهند مع عصابته المجرمة نفذوا تهديدهم، حيث حدثت اشتباكات عنيفة، بين الحرس وعصابة السيد نيكولاس.

بدأت بلوم نفسي على ما جرى داخل القصر، لو أني ذهبت للقاء مع الدكتور مهند، لما حدث ما رأيت الآن وخسرت السيد مروان وكلّ ما في القصر.

لو كنت أكثر ذكاء وفطنة لعرفت الحقيقة منذ البداية، ولكن أنا إنسانة غبية وجبانة، نأيتُ بنفسي عن كلّ ما كان يجري حولي من أحداث، وشغلت تفكيري بأشياء لا قيمة لها.

دخلت من بين الناس المتجمهرة حول القصر، لأرى السيد مانويل بجانب السيارة مقتولاً، الدماء تسيل منه.

ثم قبل الوصول إلى الباب الداخلي للقصر، رأيت السيد دانيال ينازع.

ركضت بسرعة جنونية إلى الداخل، لأرى ماري بين الحياة والموت.

لا أعلم ما كنت أبحث عنه، وفي أي اتجاه سأسلك، لأن عقلي كان يخبرني بأنه يجب أن أطمئن على السيد مروان، وأنا أدعو الله، ألا يصيبه أي مكروه أو أي ضرر بعدما أيقنت بأنه بريء، من كلّ التهم والشكوك التي كنتُ أظن بها اتجاههُ هو والسيدة جانيت رحمهما الله.

دخلت إلى مكتبه بسرعة جنونية رأيت السيد مروان مرمى على الأرض والدماء تغطيه، تملأ جسده، وحوله الكثير من الرصاص كأنهم أفرغوا مخزناً للسلاح في جسده.

تم نقل السيدة ماري والسيد دانيال إلى المشفى لتلقي العلاج اللازم لهما، فيما بقيت أنا طوال الليل أعد لمراسم الدفن.

لا أعلم من أين استمديتُ تلك القوة حينها رغم الفاجعة الكبرى التي أحلت عليّ كأنها لعنة مكتوبة بأن أعيش البؤس بكلّ خطوة أسير بها نحو الأمام.

رغم الوجع بالصراخ والنواح الذي استمر طوال الوقت إلا أنني في نهاية الأمر استطعت أن أتمالك نفسي وأرتب لموكب الدفن، وتحضير جنازة تليق بمقام السيد مروان والسيد مانويل، ليتم دفنهما بجانب قبر السيدة جانيت في المقبرة الخاصة لهما بالقصر.

بما أن السيد مروان والسيدة جانيت عاشا منذ الصغر كتوأم واحد وماتا بتاريخ الشهر الواحد لم يكن بين دفن السيدة جانيت والسيد مروان إلا اثنا عشر يوماً فقط.

من شدة ما شعرت بالقهر والحزن عليهم أرسلت دعوات نعوه لكلّ معارف السيد مروان وعائلته وإخوته بالتبني.

أردت أن يكون موكب تشييع دفنه موكباً يليق بفخامة السيد مروان، شخصية راقية محببة لم أرَ يوماً ما في حياتي شخصاً بأدبه أو أخلاقه.

كان كلّ ذلك الاهتمام بمراسم الدفن للسيد مروان، قد يكون بالنسبة إلى رد جزء صغير أو بسيط مني لرجل شعرت بوجود الأب الصادق النبيل بمشاعره نحوي، أو قد يكون عرفاناً مني لرجل لم يمر يوماً من الأيام رجل بمكانته الإنسانية والاجتماعية المحببة من قبل الجميع.

دائماً يفاجئنا "القدر" بالخبايا أو النيات الخبيثة أو ما يوجد في النفوس من خبث المشاعر المزيفة التي تحيط بنا لتخبرنا الحياة كيف تحاك المؤامرات، التي لا يعلم بها إلا من يختبر الناس ويتعايش معهم ليأتينا الظن بما كنا نشك أو نعتقد دائماً بصدق نيات من حولنا.

هناك خيبات أمل كثيرة تصيبنا وإحباطات تجعل من أحلام بعضنا لقمة سائغة في فم الأوغاد مهما كانوا إنسانيين بإنسانيتهم أو من يعتقد بأنهم الحائط الذي نسند ظهرنا إليه، نكشف لهم صدورنا وأسرارنا أو أن نعتقد بأنها أسرار، لتأتينا الطعنات متتالية بشكل متسلسل كالسم القاتل.

خلال الدفن لمحت من بين المعزين الدكتور مهند، نظر إلى من بعيد بنظرة خبث ومكر.

كان كلّ شيء يدل على تورط ذلك الخبيث القذر بكلّ الجرائم التي حدثت ومازالت تحدث إلى الآن بحق جميع الفتيان والفتيات الذين يتم خطفهم ونزع أعضاء من أجسادهم والاتجار بهم.

اقترب مني الدكتور مهند بشكل يدعو للشك أو لفت النظر إلينا من قبل الجميع.

كأنها رسالة تهديد مبطنة من دون خجل مما فعله بالسيد مروان أو السيدة جانيت وباقي من كان موجوداً بالقصر في ذلك الحادث المشؤوم، يحذرني بخبث ماكر بأنه قد حان دوري للتخلص مني أيضاً وأنها اقتربت الساعة الأخيرة لنهايتي أنا الأخرى.

بكلّ وقاحة وهو مبتسم ابتسامة الشرير المنتصر في معركة قذرة ووسخة.

همس بالقرب من أذني، انتبهي يا هزار لم يبقَ سوى أنت الآن من يعلم بكلّ ما جرى وبوجود تلك الوثائق والملفات التي كانت بحوزة السيد مروان.

لو أن السيدة جانيت كانت تتمتع بالقليل من الذكاء والبصيرة الثاقبة لما وصلنا إلى هنا، أنا حذرت السيدة جانيت، أعطيتها عشرة أيام لتسليم كلّ ما لديها ضدنا، ولكنها رفضت والسيد مروان أمهله السيناتور نيكولاس يومين وأيضاً حدث له ما حدث لتوءم روحه السيدة جانيت كما كان يقول عنها أخته الصغرى المدللة.

كان السيد مروان صعب المراس، رغم أنه ناجح جداً في عمله كمحامٍ، كان بإمكانه أن يستفيد أكثر لو تعاون معنا في القضايا الساخنة والحوار الجاد والهادف، الذي أردناه منه ولكنه رحمة الله عليه كان غبياً بعض الشيء.

أما أنت يا هزار، فتاة صغيرة وجميلة وذكية، وما تزال الحياة أمامك بكامل أطيافها وجمالها، لا تضيعي هذه الفرصة الأخيرة لك الآن.

ثم أكمل تهديده الوقح، وهو يشير بأصبعه مصوباً به نحو رأسي بإشارة مسدس جاهز للقتل في أي لحظة.

أمامك الآن يا صغيرتي أو يا هزار، فقط أربع وعشرون ساعة.

وإلا سأدع هؤلاء الرجال.

أرأيت أين هم هناك؟

انظري إليهم جيداً، سأطلب منهم على الفور، بتجهيز قبر جميل لك يا صغيرتي، بجانب الأب الروحي لكِ السيد مروان والسيدة جانيت.

إن شاء الله تجتمعون جميعاً معاً، في السماء الدنيوية الأخرى مع الملائكة، أو إذا اخترتِ البقاء على قيد الحياة، يجب تنفيذ ما يترتب عليكِ فعله، بأن تكون الملفات التي كانت بحوزة السيد مروان معنا، قبل انقضاء المدة الزمنية المحددة لكِ.

هل فهمتِ يا إنجي ما أقوله لك؟

أجبتهُ بنظرة استحقار وسخط، بأني فهمت ما كان يريده مني.

وقلت له سنلتقي عما قريب، لا تقلق كثيراً يا دكتور مهند أنت وسيدك السيناتور نيكولاس.

ولكن بشرط واحد فقط، أريد جميع الأوراق والوثائق التي تثبت هويتي الأصلية.

أشار إلى بخبث وهو يدعك لحيته الصغيرة.

أجل لك ما تريدينه وأي شروط أخرى سأكون جاهزاً في تنفيذها بشرط ألا تخلي بالموعد المحدد الذي بيننا، وستكونين تحت حمايتنا إذا أردت ذلك.

****

طريق الخلاص

مع مرور الوقت تتغير نظرتنا بمن يحيطون بنا، حتى نظرتنا لذاتنا تتغير، أو لما كنا نعتقد أنها وجهات نظر صحيحة من قبلنا.

على مرور الوقت تنقلب الأشياء التي كانت تعجبنا لتصبح نظرتنا للحياة أو ما يدار من حولنا مختلفة عن سابقتها.

تتكون لنا نظرة حيادية، ثاقبة أعمق كثيراً بالنظر إليها من عدة زوايا متقاطعة أو مختلفة كضربات كرات البلياردو لنختار أي زاوية هي الأفضل للعب فيها، أو أي لعبة يجب أن نلعبها كما يحبّها غيرنا ونفوز نحن بها في النهاية، إذا أردنا النجاح.

قد تكون تلك النظرة مختلفة أو متباينة بين عقليات البشر حسب البيئة والمنشأ التي نشأ عليها الفرد، قد تكون في مستوى النضج والوعي عنده أو حسب ما يريد الشخص تسميتها لها، في أغلب الأحيان تكون بالعقلانية، أو اللامبالاة إذا أردنا تعريفها أو تسميتها بذلك.

كان الموعد مع الدكتور مهند يقترب، كنت أعد الساعات اللحظات، الثواني، لأرى نهاية النفق المظلم الذي كنت أشعر به بعدما وعدته بإعطائه جميع ما يريده من أوراق وملفات وشرائط مصورة كانت بحوزة السيد مروان.

بعد قرابة الساعة على انتظار قدومه إلى الفندق جاء الدكتور مهند يحمل بيده الأوراق الشخصية، وجواز السفر باسم هزار حسن محمود عيسى.
سلمته كامل الوثائق والملفات.
ثم سألته عن الشريط المصور الذي ادعى بأن السيد مروان يجلب المراهقات ويقوم بجلدهم وتعذيبهم، أخبرني ساخراً مني بأنها قصة مفبركة لكي أكره السيد مروان وأتعاون معهُ.
ولكن قبل أن أعطه ما جعل من السيدة جانيت والسيد مروان جثة هامدة تحت التراب طلبتُ منه شيئاً مهماً وخاصاً بي، بما أني في مجتمع يقوم على المصالح وسفك الدماء.
طلبت أن يفي بالوعد الذي قطعه على نفسه في عزاء السيد مروان، بالحماية الكاملة لي من قبلهم طوال إقامتي في قبرص، وبألا يتعرض لي أي أحد من عصابته مهما كان الأمر وأن يكون القصر وجميع ممتلكات السيد مروان والسيدة جانيت تحت وصايتي وملكاً لي.
بقيت أعيد وأكرر له الشروط الذي اتفقنا عليها بأن يترك جميع الأموال والقصر وجميع الأملاك والممتلكات باسمي، وأكون تحت حمايتهم.
ابتسم بابتسامته الخبيثة مردداً بلهفة وهو يفتح الحقيبة التي حملتُ لهُ بها الأوراق التي طلبها مني، ستكون هذه الأوراق كنقطة عبور إلى حياتك الجديدة القادمة يا عزيزتي هزار حسن عيسى.

خاطبته بتحدٍ وغضب: أنا لستُ بعزيزة عليك يا دكتور مهند ولا تعيد تكرار هذه الكلمة مرة أخرى.

هذا إن كان هنالك مرة أخرى لأراك فيها.

رأيت بطاقتي الشخصية التي تحمل الرقم الوطني، مسجل باسم هزار تولد مدينة دمشق تولد العاشر من شهر مارس لعام خمسة وتسعين وتسعمئة وألف، اسم أبي حسن عيسى واسم أمي نجلاء عيسى.

تلك الأرقام، الكلمات، الأحرف أعادت لي الكثير من الذكريات والخيوط المفقودة، بدأ شريط الأحلام يحمل بين طياته الذكريات مع الصور الغائبة تتدفق على مخيلتي.

لتعيد إلى شخصيتي القديمة، بترتيب نفسها من جديد تذكرت تفاصيل حياتي الماضية بقصصها المتلاحقة خلف بعضها بعضاً تذكرت أختي سمر وسارة وجنان وأخي الأصغر، جلال والأكبر سمير، أيضاً تذكرت يوم الحادث وكيف تمت عملية الخطف، أمام بناء كلية الطب البشري بالمزة في السنة التحضيرية الأولى.

لم أكن أعرف هديل مسبقاً بل كنت ألتقي بها عند موقف الباص عند عودتنا إلى البيت.

كانت فتاة جميلة ولطيفة، الضحكة لا تفارق وجهها الصبوح، كانت طالبة في السنة الأولى لكلية الآداب للغة العربية كنا نخرج من باب الجامعة في

الوقت نفسه نلتقي معاً ونتبادل أحاديث يومنا الطويل والشاق بالدراسة والتحضير.

لم أكن أعرف عنوان مسكنها ولا أين تقيم حتى رقم هاتفها المحمول ذهب مع الجوال الذي ضاع مني يوم حادث الخطف.

أتذكر يومها كنت أنا وهديل ننتظر الحافلة الكبيرة أي الباص الأخضر كما نسميه باللهجة العامية، ذا اللون الأخضر مسجل عليها اللافتة الكبيرة باللون الأحمر، مزة-برامكة-جسر الرئيس، كان يقلنا إلى البرامكة في دمشق وآخر موقف له تحت جسر الرئيس ومن ثم أستقل حافلة جسر الرئيس مهاجرين لأصل إلى بيتي في حي النيربين.

كلّ تلك الأشياء تذكرتها على الفور.

وتذكرت قول أحدهم لا أعلم من قالها، إنك من دون تلك الذكريات، تبدو حياتك كبيت مهجور، تعبث به الكلاب الضالة، لتتجرأ عليه فئران المداخن تعبث بها، لتتبعها قطط الشوارع تقنصها، وعلى إثرها تتعقبها الكلاب الضالة لتطاردها، ثم تدخل جحافل النمل لتلملم أشلاء من سقطوا بها، وأشلائي معهم.

****

اللقاء المنتظر

أسوأ الأشياء بالحياة هو الاختيار.
لا شيء سيجعلني بحال أفضل سوى البُعد، ثم البُعد عن كلّ شيء.
قد يكون اللقاء بأعز الناس على قلب المرء، هو الحل الوحيد الذي يحتاجه في هذه الحياة.
بيت العائلة هو المكان الوحيد الآمن والملجأ الدافئ، الذي تلتجئ إليه من صقيع الروح وبرد الجفاء.
هناك الظن السائد في المجتمع، بأن الصديق أو القريب أو الأخ، هم القوة أو السند الذي سيحميك من غدر الزمان والأزمات إذا حلت عليك.
لتكون صرخة الفزع بداخلنا، كيف سيفاجئنا القدر بأن الحائط الذي أسندنا ظهرنا إليه هو هش وضعيف، مائل للسقوط في أي لحظة، والفرق الشاسع بالآراء بين البشر.
بأن يهتم بك أب حنون يقوم برعاية أبنائه، ويهتم بهم، أو بين من يدعي هذا الحبّ والاهتمام لغاية ما في نفسه.
هنا المصيبة الكامنة والحقيقة المرة والقاسية التي تصيب الجميع بالاعتقاد السائد بأن يأتي الغرباء يوماً ما ويحلون محل الأقرباء، نستند إليهم في أزماتنا ومصائبنا أو في أي زمان ومكان.

كان السيد مروان بمثابة الأب الحنون والسيدة جانيت مثل الأم بالنسبة لي.

عند تمام الساعة السابعة والنصف مساءً، من يوم الأحد لشهر أبريل، الموافق الثالث والعشرين لعام سبعة عشر وألفين.

جاء الموعد المنتظر، الذي طلبته من القدر، بالترجي والتمني.

انتظرت قدوم هذا اليوم بفارغ الصبر، بالأمل والعودة لأرض الوطن، لأحضان عائلتي بفارغ الصبر والترقب.

لحظات فرحي لا توصف في حينها، كأني أسابق الوقت مع الزمن، أتسابق مع زخات المطر، مع قطرات الندى أجري مع السحاب باللقاء المرتجى، لأصل إلى مطار بيروت أولاً، قبل الوصول إلى مطار دمشق لأسباب كثيرة أو مختلفة.

كان يجب أن أستقل طائرة بيروت في لبنان أولاً ثم أستقل طائرة دمشق، لأن السفارة القبرصية في دمشق مغلقة بسبب الحرب والوضع الأمني في سورية وقطع الحكومة القبرصية، في نهاية اثني عشر وألفين جميع العلاقات الدبلوماسية والقنصلية بين البلدين، ما جعل من إمكانية الوصول إلى مطار دمشق مدة أطول لأن علاقة لبنان وسورية الجارتين الشقيقتين لم تنقطع بينهما ولا لحظة، ثم أصعد بطائرة دمشق.

اليوم سأرى لأول مره وجه أفراد عائلتي، إخوتي وأخواتي. عندما تحدثت مع أختي جنان وعدتني أنها ستكون بانتظاري مع أمي وأبي وأخي سمير في مطار دمشق لاستقبالي هناك في المطار.

في تمام الساعة السابعة والنصف مساء، حطت الطائرة في مطار دمشق أخيراً.

ها هي المضيفة في الطائرة، تتحدث للمسافرين عبر مكبر الصوت "أهلاً وسهلاً" بكم في بلدكم الحبيب دمشق على الأراضي السورية.

خرجنا جميعنا من الطائرة وتوجهنا نحو قاعة الاستقبال.

نظرت حولي في كلّ الاتجاهات، عيناي كانتا تحدقان بكلّ الوجوه، كطفلة ضائعة تبحث عن وجه أمها أو أبيها بين عشرات الوجوه، عل وعسى أن تجد أي أحد في انتظار عودتها إليهم.

وقفت حائرة بشوق ولهفة، أنظر حولي بكلّ الاتجاهات وبالوجوه، بعد رحلة متعبة بين قبرص وبيروت ودمشق، لم أرَ أحداً أعرفه أو ينتظرني، تحولت غبطتي إلى خوف وريبة، حتى بدأ يتسرب إلى داخلي صوت ينده في داخلي، لا يوجد أحد سيستقبلك يا إنجي أو أقول يا هزار.

ها هو الوقت المحدد للقاء بهم بدأ ينفد، وهو يمر ببطء، كنت هناك أقف حائرة تائهة بين لهفة الشوق وغبطة الموقف المحرج المؤلم، الذي أشعر به أثناء مكوثي في قاعة الانتظار لساعات تمر وتمضي من دون اللقاء بأحد من أفراد عائلتي.

لقد مضى ثلاث ساعات على نزولي من الطائرة.

بدأت قاعة الانتظار تخلو من الزوار والمسافرين العائدين إلى بلدهم، أو الذين كنا معاً على الطائرة نفسها، جميع المسافرين غادروا المطار مع ذويهم، إلا أنا تلك المسافرة المختطفة رغماً عنها، لم يأتِ أحد لاستقبالها، أو الاطمئنان عليها.

ما زال صوت نحيب أمي في رأسي يدوي.

كانت تبكي من دون أن تنطق بكلمة واحدة، عندما طلبت من جنان أختي التي تكبرني بعامين أن تعطي الهاتف لأمي، كي أسمع صوتها أو أشعر بأن أمي ما تزال تحبني أو اشتاقت لسماع صوتي، ولكن فقط صوت أختي جنان هو الوحيد الذي كان يصدر منه البهجة والسرور، عندما علمت بأنني سأعود إليهم.

حين سألتها لماذا لا يريد أبي أو أحد من إخوتي أن يتكلم معي؟

قالت: لا عليك يا هزار، سنكون جميعنا في انتظارك بالمطار، الجميع هنا يريد رؤيتك والاطمئنان عليك.

بقيت أتحدث إلى أختي جنان على مدار يومين، كانت تشعرني بالارتياح والحنان والشوق واللهفة.

ما هو الأمر الذي تغير أو ما الذي حدث الآن؟

شيئاً فشيئاً بدأت أشعر بالأمر المريب.

شعرت بأن حرارة اللقاء، والنار المتقدة في أعماقي، بدأ جمرها يبرد رويداً رويداً بداخلي.

على مدار الأيام الماضية كنت أتوهج من الفرح كمن ينتظر هدايا عيد الميلاد قرب المدفأة.

على الرغم من أني حاولت لأكثر من مرة، أن أسمع صوت أمي وحاولت أن أتصل بها، إلا أن أختي جنان التي تكبرني بعامين كانت تعتذر لي، بأن أمي لا تستطيع التحدث معي لأنها مريضة وصوتها مبحوح من المرض (الزكام)، ولا تستطيع أن تكلمني، كانت تضع المبررات والأعذار لهم، عندما كنت أيضاً أسألها عن أبي.

طلبت التحدث إليه أو إلى أي أحد من إخوتي، لأكثر من مرة، كانت تخبرني بأن أبي ذهب ليصلي بالجامع، وعندما يعود مع باقي إخوتي ستخبرهم أني اتصلت بهم و أيضاً ستخبرهم عن موعد رحلتي القادمة من قبرص إلى بيروت و من ثم قدومي إلى دمشق.

كم تمنيت في حينها، أن أحجز على متن الطائرة القبرصية السورية، وبسبب الأوضاع الأمنية التي تمر بها البلاد من حرب وقتال مستمر، حالت دون ذلك من السفر إلى دمشق بشكل مباشر.

إذاً كانت أختي جنان تكذب بشأن مرض أمي، ووضع أبي وأخواتي.

لماذا فعلت ذلك معي؟

ليست مضطرة للكذب، ما كان عليها فعله هو قول الحقيقة بأنهم يرفضون اللقاء بي.

بقيت في قاعة الانتظار أنتظر لساعات طويلة، للأسف لم أجد أحداً في انتظاري، مكثت في قاعة الانتظار، قرابة خمس إلى ست ساعات أنتظر قدوم أحدهم، كي يأخذني إلى بيت الحنان والطفولة، كي أستطيع أن أستوعب ما يجري حولي، أو أن أبرر لهم سبب غيابي عنهم أو ما قد حصل معي خلال السنوات الماضية.

كان كلّ ذلك الأمل والصبر بعد سنين من القهر والعذاب من عدم اللقاء بهم، كالضربة القاضية التي قصمت ظهر البعير.

تخيلت حرارة اللقاء الأول بعد غياب طويل، و الأحداث التي مرت معي، كنت سأحدثهم عنها بالتفصيل، و ما مررت به خلال السنوات الأخيرة بالمرارة و الصبر، وأهيئ لهم القصر في قبرص للسياحة فيه.

حملت لهم الكثير من الهدايا، من حليّ ومجوهرات وثياب من أجود أنواع الأقمشة الفاخرة.

كانت هناك أحلام وآمال مرجوة من هذا اللقاء والموعد المرتقب كانت هناك فرصة أخرى أنتظرها من الحياة، تشعرني أني إنسانة ولدتُ في هذه الأرض وشربت من مياهها، ودرست تاريخها على مدار سنين من عمر الطفولة سأخبرهم بأني كنت مرغمة على البعد عنهم، لم يكن بإرادتي أن أتعرض لكلّ هذه المواقف أو أن أرى كلّ تلك الوجوه الشريرة في حياتي.

على الرغم من قساوة ما مررت به في ذلك اليوم تمنيت لو أن الزمن يعود بي أياماً قليلة ولم أستعد ذاكرتي.

لماذا سعيت طوال تلك السنين لإعادة ذكريات الطفولة؟

بحنان أمي وعطف أبي أو الألعاب التي كنت ألعب بها مع إخوتي وأخواتي وأبناء الجيران.

كانت كلّ تلك الذكريات لتزيد الندوب والجراح بفؤادي المتعب من الغياب والرحيل.

مكثت في قاعة الانتظار لساعات طويلة، بقيت أقف في المطار، أترقب المسافرين، أو كلّ من يدخل ويخرج من باب المطار، أو يغادره من باب الاستقبال، على أمل أن يلوح لي طيف أحدهم، من بين تلك الوجوه التي تمر أمامي أو ألمح أي وجه يشعرني بأني متواجدة في مكاني الصحيح الذي أنتمي إليه.

بعد مرور الوقت الطويل، وأنا أرى كلّ مشاهد الحياة التي مضت أمامي كشريط مصور متتالي الأحداث، لم يأتِ أحد من أفراد عائلتي، لاصطحابي إلى المنزل الذي جاهدت كثيراً للوصول إليه، أو لمعرفة من هي عائلتي.

في أثناء انتظاري الطويل، أدركت بشكل قاطع الخطأ الفادح الذي ارتكبته، بأني تشبثت بمقود الماضي وذكرياته الغابرة من دون أن أدرك عواقب ما خطوته أو أحسب حساب عكس ما فكرت به، أو ما حلمت به، أدركت حينها أني في المكان الخطأ، وإني منذ لحظة غيابي عن بيت الأهل

أصبحت فتاة منبوذة غير مرغوب بها بين أفراد تلك العائلة المحافظة، شعرت بالخذلان.

لم أخسر فقط سنين عمر جاهدت به كثيراً لأصل إلى ما وصلت إليه، بل خسرت عائلتي للأبد، رغم الألم، مما جرى معي، لأسباب وأفعال كثيرة لا ذنب لي بها، أو كلّ الذي تعرضت له من خطف وتعذيب، كان خارجاً عن إرادتي كنت أتمنى أن يأتي أحد من أفراد عائلتي ليحاسبني ويسألني عما حدث معي وما هي أسباب غيابي عنهم وعودتي إليهم؟

كان الجواب في كلّ لحظة حاضراً بداخلي؟

لا يمكن لأحد مهما كان شأنه، أن يحاسبني على ما حدث معي بأي شكل من الأشكال، حتى أمام أي قانون من قوانين الحياة.

هزمتني الحياة في ذلك اليوم شر هزيمة.

صنعت في مخيلتي أحاديث كثيرة ومثيرة، تجولت في مخيلتي الكثير من المناظر القديمة، بالأحاديث المبهجة عند لقائي بأمي وأبي، عن اشتياقي لضمة منهم، تنسيني تعب وعذاب تلك الليالي التي قضيتها بالبعد عنهم، ليس بالاغتراب عنهم فقط، بل بالاغتراب عن ذاتي وعقلي وشخصيتي الحقيقية، المخفية وراء عالم جاحد، مظلم مجهول الهوية والنسب.

كنت أود أن أخبرهم الكثير من الحقائق عن السيد مروان، الذي كان والدي ووالدتي يتفاخرون بأخلاقه الحميدة، وبأنهم أحسنوا تربيته بشكل جيد.

كنت أريد أن أخبرهم عن الفتى الصغير المهذب، الذي عاش في بيتهم مدة طفولته حتى كبر وتخرج من الجامعة.
أو ماذا أخبرهم عن تلك الفتاة الصغيرة المدللة، من لحمهم ودمهم والعذاب الذي تعرضت له خلال خطفها أو سرقة أعضائها أو رميها بين الجثث، ماذا سأخبرهم عن تلك الفتاة المسكينة التي يرفضون مقابلتها أو أن يسمعوا حكايتها الآن.
كنت سأخبرهم أن ابنتهم الوحيدة، لم يستطع أحد بأي يوم من الأيام أن يمسها بسوء، مدة غيابها عن منزلهم، وأنني كنت بحماية السيد مروان والسيدة جانيت.

لا أعلم لماذا لم أستطع أن أبكي أثناء انتظاري الطويل في المطار؟
لم أستطع أن أصرخ وأنا أرى وجوهاً مختلفة تمرّ أمامي.
منهم من يضحك لشدة الفرح باللقاء بعد الفراق، ومنهم من يبكي مودعاً حبيباً أو قريباً لا يعلم متى اللقاء به.
في المطار بالذات، عكس جميع الأمكنة الموجودة في العالم، ترى كلّ الأشياء معكوسة، كألوان الطيف تختلط المشاعر والأحاسيس عند الناس بأشكال مغايرة بألوانها الحقيقية، في اللحظة الواحدة، بذات العين والنظرة، في الثانية الواحدة، تختلط مشاعرهم ولا تستطيع أن تميز بينها وبين ما هو حزين أو سعيد.

كلّ شيء هناك بقاعة الانتظار بالمطار يدعوك للذهول والخوف من حقيقة ما ترى.

لا أعلم، هل ندمت على ما كنت أفكر به أو مما كنت أقوله بأن أغير الكثير من الأمور في حياتي، ولكن عندما جربت ذلك التغيير.

لم يعجبني وتمنيت لو بقيت كما كنت.

والآن أي اتجاه يجب أن أسلك، أو أسير به، أو أي درب من الدروب هو طريق الخلاص من هذا الكابوس المرعب.

عيناي تتجولان بالوجوه الغريبة لا أعرف أي أحد من تلك الوجوه التي تمنيت لو أرى أحداً أعرفه من قريب أو بعيد.

ولا أعرف أي أحد في دمشق للذهاب إلى بيته أو اللقاء به هل أذهب إلى بيت خالي عابد؟ هو رجل دين وتقي يخاف الله كثيراً ولكن حينها تذكرت كلام السيد مروان عندما قال لي إن والدك وعمك سامر كانا يتوعدانك بالموت إذا رآك أحد منهما والقصاص ممن ذهبت معه، خفت حينها وشعرت أن الموت يتربص بي مرة ثانية إذا تخطيت عتبة المطار.

ثم لمحتُ والدة أحدهم تمشي على عكازة خشبية، تودع إحدى بناتها، الدموع تغرقها بالنواح، كانت ملامحها تشبه ملامح عمتي ميسون، شعرت بالغبطة، تملكني التوتر الشديد والغضب الخانق، استنفرت كلّ مشاعري، لأدرك ما كان يحدثني به عقلي في تلك اللحظة، هو أن أتخلص من هذا المكان المريب القاسي والجاحد بحقي، بأن أعود إلى المكان الذي جئت منه. لم

يعد يهمني، ما سيحدث لي بعد الآن إن بقيت في لبنان أو سورية أو غادرتها إلى أي مكان في العالم.

لم تعد تعنيني الأماكن ولا المسميات التي تطلقها الحياة علينا أو التي تعودنا على تسميتها بأسمائها المختلفة من حبّ الأبناء والأمهات والوطن والأرض كلّ هذه المسميات نطلقها فقط لتشعرنا بهوية الانتماء لها في تزيف حقائق الأمور.

هذه المسميات أصبحت الآن لا تعني لي بأي شكل من الأشكال، كوجود العائلة في حياتي أو الأرض أو الوطن شعرت بالكره الشديد، من أعماق نفسي لكلّ من كان السبب في هذا الوضع السيئ، الذي كنت فيه في ذلك اليوم المشؤوم.

بدأت أعصابي تثور، من تصور رؤية أي أحد يمر من أمامي، وبهذا الموقف السيئ الذي وضعت نفسي به.

شعرت بثورة عارمة، كالبركان أغلي بداخلي، عروق من الجمر الملتهبة، بدأت تظهر على ملامح وجهي بالغضب والتوتر والعصبية.

ما كان عليّ فعله إثناءها بذلك الوقت، هو أن أضع حداً لهذا الجرح النازف، أو لذلك الموقف المحرج من حياتي.

بدأت أسأل نفسي ما هذه العائلة المحافظة التي تتمسك بالعادات والتقاليد والحفاظ على الشرف بأن ترفض فتاة من لحمهم ودمهم، من دون أن يستمع أحد منهم لها، أو يسأل عن سبب غيابها ورحيلها من دون أي سبب، أو ما

هي قصتها وما هو سبب غيابها عن منزلهم من دون مبرر، أنا متأكدة من أنهم لم يبحثوا عني يوماً ولا أرادوا أن يعلموا أي خبر يخصني.

أجريت اتصالي الأخير بالهاتف المحمول على هاتف أختي جنان كان مغلقاً وخارجاً عن نطاق التغطية؟

في تمام الساعة الثالثة صباحاً توجهتُ إلى موظف المطار للطلب منه تذكرة سفر عودة، والمغادرة إلى المكان الذي جئت منه.

كانت ليلة قاسية، لم أختبر مثل هذا الشعور سابقاً بفرح اللقاء، ثم بالعجز واليأس بعدم اللقاء.

حطت الطائرة من جديد في مطار قبرص، عدت إلى القصر.

ثم توجهت مباشرة إلى قبر السيد مروان، قبل وصولي إلى المقبرة توقفت عند بائع الزهور، اشتريت باقتين من الزهور البيض والليلكي، وقفت أمام قبر السيد مروان صامتة، لم أستطع أن أتحدث معه كالعادة بل بقيت أنظر إلى اسمه المحفور على قبره، وأنا متأكدة أن نيته بذلك الوقت منذ أربع سنوات لم تكن سيئة نحوي، بل على العكس كانت حسنة، ندمت على تصرفي الأخير معه، كنت أحقد عليه لأمر واحد فقط، لو أنه أخبرني بالحقيقة كاملة منذ البداية، وأعادني لبيت عائلتي منذ أن عرف حقيقة من أكون، و شرح لهم ما جرى معي من عملية خطف، أو ما تعرضت له من سرقة لأعضاء مني، و تبرير سبب غيابي عن بيتهم بالخطف القسري بذلك

الوقت من أمامهم، ما كنت الآن أقف حائرة أمام قبره معلقة بين الماضي والحاضر.

تركت قبره صامتة، بعدما وضعت الزهور البيض عليها.

ثم توجهت إلى قبر السيدة جانيت وضعت عليه الأزهار الليلكي، لأن السيدة جانيت كانت تعشق هذا النوع من الزهور والألوان، سقيت الزهور التي بدأت تنمو بسرعة، ثم جلست صامتة بجوار قبرها أتذكرها بصمت والدموع لا تفارق وجنتي.

نظرت بتاريخ الوفاة في الحادي عشر من شهر يناير لعام سبعة عشر وألفين.

أيضاً لم أستطع أن أتحدث معها أو أنطق بأي حرف، فقط غصة خانقة تؤلم حنجرتي.

تذكرت أول مرة رأيتها فيها عندما استيقظت وأنا مندهشة من جمال الأشياء حولي، كانت تحمل بيدها كوباً من القهوة البرازيلية الفاخرة.

كانت تشير إليّ بأن أنهض من السرير بطريقة مهذبة وراقية، وتنظر إلى الفطور الموجود أمامي على الطاولة، وأيضاً عندما خرجت من باب الحمام كانت تمسك بيدها الفستان الوردي كي أرتديه عند أول مرة لي للقاء السيد مروان.

الآن علمت لماذا انتابني شعور الخجل عندما لبست ذلك الثوب القصير والمكشوف على الصدر والظهر، لأنني كنت في دمشق محجبة ارتدي

الحجاب، ثم مشت السيدة جانيت أمامي إلى مكتب السيد مروان، تذكرت الخوف والخجل من أول لقاء مع السيد مروان، طلبت منها أن أشرب الماء قبل لقائه الأول به، وقبل أن أتعرف إلى رجل كان سخي العطاء معي.

تذكرت حين أظهر أمامي الأوراق والهوية والصور والقصة التي رواها لي عند أول لقاء بيننا، صحيح كانت نصف الحقيقة مزيفة، ولكن كانت مشاعره حقيقية، في كلّ ما كان يرويه لي من أحاديث بحسن نية.

عدت من قبر السيد مروان والسيدة جانيت إلى القصر، ثم توجهت إلى مكتبه أبحث عن أي دليل يثبت عكس ما أنا عليه.

لم أجد سوى أوراق وجوازات سفر، متعددة للسيد مروان والسيدة جانيت إلى مختلف دول العالم.

سخرت من وضعي وأنا أبحث عن الماضي بين الأوراق وجوازات السفر، بدأت أضحك وأبكي بالوقت ذاته.

كيف أبحث عن الأشياء المفقودة، بينما الماضي بكلّ أطيافه رفض الاعتراف بي.

تركت كلّ شيء في مكانه وصعدت إلى غرفتي جلست على سريري، أتأمل الساعة وهي تدق عقاربها كالسم في جسدي، لم أشعر أني غفوت إلا حين استيقظت على صوت جرس الهاتف، اقتربت من الهاتف لأرد على المتصل، سكت الهاتف ولم أعرف من كان المتصل.

حتى أنني لم أرغب في معرفة من الذي أزعجني قبل بزوغ الفجر.

اتجهت إلى المطبخ، سكبت كأساً من الماء ثم قمت بإعداد كوب من القهوة.
نظرت إلى زاوية حائط المطبخ من الجهة الشمالية لباب الحديقة، رأيت رزنامة التقويم اليومي للسنة الميلادية، كان صباح يوم الاثنين، بداية الدوام الرسمي، بعد العطلة الأسبوعية في قبرص.
لا شيء أفعله لهذا اليوم ولا بعد هذا اليوم.
وأنا أقلب بين أوراق الرزنامة المعلقة على الحائط، بدأت الدموع تنهمر من عينيّ.
لم يعد هناك السيد مروان أو السيدة جانيت، لوضع برنامج عمل مكثف لي كي أعمل به على مدار الساعة، أو يشغلني عملي به، بالذهاب إلى الجامعة على مدار اليوم، حتى أنني لا أستطيع التفكير بنفسي، كنت أبدأ يومي، منذ لحظات الصباح الباكر الأولى إلى نهاية آخر الليل، من دون ملل أو كلل، لم يعد هناك أي عمل مهم لكي أقوم به، لا اليوم ولا غداً ولا بعد غد.
أصبحت الآن أعيش في هذا القصر الكبير الواسع لوحدي، أرتشف مرارة الحياة مع كوب القهوة.
حينها فجأة خطر على بالي أن أبحث عن يعقوب وأعيد علاقتي الحميمة معه، أو أن أعرف أي شيء عنه، وأعلم ما هي آخر أخباره، وما حصل معه بعد انفصالي عنه أو هل ارتبط مع تلك اليونانية، وأين مكان وجوده الآن.
هل لا يزال يعقوب في قبرص أم انتقل إلى مكان آخر؟
أو ماذا يعمل في هذه الأيام؟

بعد لحظات من القرار المفاجئ الذي اتخذته بالبحث عن يعقوب، من دون أن أنتبه، فجأة مال كوب القهوة من يدي ووقع على الأرض.

عدت إلى صوابي، كأن أحداً ما صفعني على وجهي استيقظت من غفلتي.

ولماذا أبحث عن يعقوب؟

كان حبيباً رائعاً، ولن يعوض أحد مكانه مهما كانت صفاته حتى لو فكرت يوماً من الأيام بالارتباط بأي شخص، لن يكون مثل يعقوب، ولن يمر معي شاب، بجماله أو بأخلاقه أو و سامته.

لكني لن أبحث عن يعقوب، سيبقى ما فعله الدكتور مهند معه عائقاً أمام أي تطور لحياتنا المستقبلية والعاطفية.

يجب التركيز أو اعتبار ما جرى من أحداث بعلاقتي مع يعقوب، بأنه حدث ماضٍ لا سبيل للعودة إليه، مجرد عاطفة عابرة، مرت بسرعة في خيالي.

أنا متأكدة من أن يعقوب قد سمع عن الحادث المؤسف الذي تعرضت له السيدة جانيت والسيد مروان أدى إلى مصرعهما، ولم يتصل بي لتقديم واجب العزاء أو المواساة لي.

كنت في توتر شديد، مما حدث معي في مطار دمشق، وفي الأيام القليلة الماضية، وأنا أجر ذيول الهزيمة بخيبات الأمل.

ثم قررت أن أنسى يعقوب، وأنسى كلّ القصص التي مرت معي سابقاً، وأن أخطط للأيام القادمة بشكل أفضل، وأعيد حساباتي، بترتيب الأشياء من

حولي بشكل محسوب ودقيق، بكلّ التفاصيل الصغيرة والكبيرة، لقد تعلمت من السيد مروان أشياء كثيرة ومهمة.

فأنا أملك ثروة هائلة من المال، وأسكن في قصر، يسرق الخيال كأنه في الأحلام.

كنت أمسح مكان القهوة المنسكبة على الأرض.

وأتخذ القرارات المهمة التي يجب فعلها في الأيام القادمة كان من أهمها، بأن أجد أحداً منذ الغد الباكر يهتم بتنظيف القصر وترتيبه، سأتصل بمكتب الخدم لكي يرسلوا لي عدداً من الموظفين، وعدداً من الحرس للقصر، وأيضاً ما تزال أمامي سنة دراسية كاملة للتخرج، سأدرس واجتهد جيداً كي أتخرج في الجامعة بعلامات ممتازة، وأحافظ على مظهري الأنيق أمام الناس، وأيضاً حتى لا أثير الأحاديث أو الشبهات حولي.

سأعيد علاقتي مع مارغوا وجافي وريبال وصلاح، والشلة القديمة سأتصل مع الجميع منذ اليوم.

كلّ تلك القرارات في لحظتها زادت من قوة عزيمتي، أو حماسي بأفضل عبارة.

رتبت أوراقي على هذا النحو، على الرغم من الألم الشديد والأحلام المرعبة، التي كنت أراها كلّ ليلة أثناء النوم.

لم أرغب في تناول أي نوع من المهدئات، أو أن أزور عيادة طبيب نفسي، لا أريد أن أبقى تحت تأثير الأدوية والمخدر في ترجمة الأطباء النفسيين السيئة لحالتي.

أنا أعي تماماً ما أمر به ولست بحاجة لطبيب، كي أكون فأر تجارب في عياداتهم الخاصة.

إذا لم ينفع هذا المهدئ سنصف لك مهدئاً آخر.

بعد مرور ثلاث سنوات على آخر كابوس مرعب تعرضت له، بشكل خاص حينما علمت حقيقة من أكون، والإحساس البائس الفاشل بتحقيق هدف العودة لبيت عائلتي، أو بالعبارة أصح، شعور اليأس والإحباط بأني ابنة منبوذة ومرفوضة بالعودة إلى عائلتها المحافظة، التي تتمسك بالعادات والتقاليد والحفاظ على الرابط الأسري، وفشلي في تحقيق ما صبوت إليه.

بتاريخ التاسع عشر من شهر يوليو، عند تمام الساعة السادسة مساءً من يوم الأحد، لعام عشرين من ألفين، عدت من جديد إلى دمشق مرة أخرى، ولكن هذه المرة، لم أخبر أحداً بقدومي أو بالسفر إلى دمشق.

لم أتصل بأمي أو حتى بأختي جنان، بل اتصلت بمكتب الطيران في بيروت، و حجزت مقعداً على رحلة الساعة الثانية عشرة من بعد الظهر، حطت الطائرة في أرض بيروت عند تمام الساعة الرابعة والنصف مساء من يوم الجمعة، بقيت في بيروت لمدة يومين، نزلت في فندق بمنطقة جونيه اسمه، "منتجع وفندق" "هوليدي سويتس"، لم أخرج من الفندق بل بقيت به لمدة

يومين، لا أعلم لماذا لم يثر تفكيري أن أتجول بشوارع بيروت، أو أن ألتقي بأي أحد قد يعود السبب للمعاملة السيئة الذي حظي به السوري الذي هرب من تحت الضرب والقصف، و التجأ إلى الجارة الشقيقة، و تعامل معه بعض اللبنانيين بالمعاملة السيئة.

خفت حينها أن أتعرض لأي إهانة أو نظرة فتاة سورية لاجئة في أرض تعتبر موطناً لحضارة واحدة.

من بعدها حجزت برحلة التاسعة مساءً إلى دمشق، وصلت إلى مطار دمشق كأي سائحة قبرصية، لا تنتمي إلى هذه الأماكن، وليست مواطنة سورية جاءت إلى موطنها، لتشحذ العطف والحنان أو الشفقة من عائلة، ترفض سماع صوتها أو أن تذكر لفظ اسمها، أو تحاول تلك العائلة معرفة ما هو الحدث الذي يدعو فتاة صغيرة لم تكمل ربيعها التاسع عشر بأن تترك بيت والدها وترحل من دون سبب، وأنا من كنت لا أضيع فرضاً من فروض الصلاة، أو الصيام خلال شهر رمضان المبارك.

عندما وصلت إلى مطار دمشق، كان بانتظاري شاب يدعى حاتم، أخبرني حينما عرفني على نفسه، أنه من محافظة الحسكة في شمال سورية، يعمل كموظف لدى شركة السياحة أو كدليل سياحي، من قبل الشركة السياحية المختصة التي اتصلت بها من قبرص، ونسقت معه للإقامة في بادئ الأمر بالفندق اسمه فندق البستان في شارع شكري القوتلي بدمشق، مكثت بالفندق قرابة خمسة أيام.

تجولت بشوارع دمشق العريقة زرت أماكنها الأثرية، والسياحية ومطاعمها الفاخرة والشعبية، تذوقت أشهى المأكولات والمشروبات والحلويات بأسواق الميدان وباب توما والصالحية.

أيضاً رأيت أبنيتها التي عاث بها الخراب والدمار، قرابة تسع سنوات من الحرب والنزاع، رأيت ملامح الفقر على وجوه الناس، وكيف تتسول الأطفال والنساء بشوارعها، و تشحذ رغيف العيش، والبؤس مرسوم بوجوه الفقراء و المحتاجين، رأيت كيف تحولت مدينة دمشق من عاصمة للسياحة والثقافة، إلى مكان قذر تملأ شوارعها الأوساخ والجرائم والأوبئة، أما أبنيتها ترى آثار الرصاص على جدرانها، تحكي قصصاً مرعبة عن العنف و الاشتباكات العنيفة المدمرة لكلّ ملامح الحياة، حتى بساتينها حزينة لا توجد بهجة أو فرحة في عيون صغارها أو كبارها، كأنك تسير بين أشلاء الجثث وليس بين الأحياء.

الفقر ظاهر للعيان في كلّ مكان تزوره في الحانات والمقاهي والسيارات والحدائق، أينما ذهبت ترى وجوه الشحاذين والمتسولين وطوابير من الفقراء والمساكين أمام المخابز، تنتظر دورها بالساعات للحصول على ربطة خبز لسد رمق أطفالهم الجياع، القوانين التي تفرض على الحكومات، لا تؤثر سوى على عامة الشعب، الذي لا مكان يلجأ إليه سوى القبور، بينما الأغنياء الذين يسرقون قوت الشعب لا تهمهم العقوبات، من أراد العقوبات لشعب أعزل فقير هو من يريد نهبه وسلب ثرواته.

كان كلّ شيء في دمشق يوحي لك بالتعاسة والظلم، والذي زاد البؤس أكثر، قانون العقوبات الاقتصادية المتمثل بقرار قيصر المفروضة على شعب لا يملك من الحياة سوى الصبر والموت البطيء.

بعد مرور عدة أيام على إقامتي في مدينة دمشق، جاءت على رأسي فكرة مجنونة، كانت الشعرة التي قصمت ظهر البعير.

طلبت من السيد حاتم المرافق لي، أن يشتري لي منزلاً في دمشقَ، يقوم بتجهيزه بأفضل الأثاث والفرش الفاخر مهما كان السعر الذي يدفعه، حينها لم يكن يهم مقدار المبلغ الذي سأدفعه.

حينما سألني السيد حاتم هل هناك مكان محدد ترغبين به، أعطيته عنوان البناء الذي نشأت به مع عائلتي، والذي كان السيد مروان يقول عنه بيت أبيه وأمه أيضا.

لا أعرف ما أصابني خلال الثلاث سنوات التي مضت، كنت أفكر بعائلتي بكلّ لحظة واللقاء بهم من جديد، صنعت باللقاء بعائلتي صوراً خيالية كثيرة تجمعني مع أفراد أسرتي، كنت أصنع في مخيلتي مخططات، وأحاديث وسيناريوهات جميلة مختلفة في رأسي، أتخيلهم معي في كلّ الأماكن التي زرتها.

كنت أفكر.

كيف سأعود إليهم أو إلى ما كنت عليه سابقاً؟

هل حقاً أنا حفيدة ذلك الرجل الكبير المتدين السيد محمود؟

هل ستتذكرني أمي ويحن قلبها حين تراني؟
أو هل أحد من إخوتي وأخواتي وأبناء الجيران، سيتذكرون تلك الفتاة المهذبة، المجتهدة في دراستها، ويعيدونها إلى كنف العائلة من دون حساب أو عقاب؟
أم سأكون ضحية شرف بالنسبة لهم باسم العادات والتقاليد؟
لا أعلم لماذا أصابني الندم؟
خلال الثلاث سنوات، التي مرت على زيارتي لمطار دمشق في المرة الأولى.
بقيت طوال الوقت ألوم نفسي.
لماذا لم أحاول الذهاب لمنزل والدي أركع على ركبتي أمامه، وأقبل يديه وأطلب الغفران من أمي كي تسامحني وتصفح عني؟
أو أن أقنع أي أحد من أفراد عائلتي بأن ما حدث معي، لم يكن بعلمي أو إرادتي؟
بقيت طوال ثلاثة أعوام، على آخر مرة زرت به مطار دمشق، أتمنى لو أني حاولت حينها الذهاب لبيتهم، وفرض نفسي عليهم بالقوة، لكن الخوف والإحباط هو من لجمني عن متابعة هذا القرار.
كلّ اللوم والعتب يقع على عاتق السيد مروان.
كان يعلم من أنا منذ البداية، ولم يخبرني بالحقيقة، لو أنه ساعدني بالوصول إليهم أو حاول أن يشرح لهم كامل الأحداث التي تعرضت لها، لما أنا الآن أمام هذا الموقف المحرج المؤلم بالوقت ذاته.

خلال شهر آخر على إقامتي في دمشق، كنت الجارة الجديدة لبيت أمي وأبي، أسكن في الشقة المقابلة لهم، وبالبناء ذاته الذي أعرف كلّ تفاصيله وذكريات الطفولة التي لم تنسَ.

في الطابق الثاني أو الدور الثاني من البناء، المؤلف من أربعة طوابق، في حي المهاجرين بدمشق.

أول مرة سمعت صوت الباب قد تم فتحه، أسرعت بسرعة لأرى من يكون.

لمحت أمي تفتح الباب، تقف عند حافته تودع أخي سميراً تطلب منه علبة دواء الضغط ودواء السكري، وهي تأكد عليه ألا ينسى علبة الدواء لها.

بكيت عندما علمت أنها مصابة بداء السكري والضغط.

قبل اختفائي عن منزلها لم يكن لدى أمي أي مرض مما كنت أسمعها تطلبه من أخي سمير.

حتى أخي سمير أصبح جميل القوام والطلة.

توقف قلبي في مكانه، لم أعرف ما أفعله تجمد الدم في أوردتي، بقيت أقف خلف الباب قرابة ربع ساعة، أنتظر بأن تفتح أمي الباب مرة أخرى، لكي أراها من جديد أو أرى أي أحد من إخوتي.

بقيت أراقب كلّ شيء يحدث في بيت أهلي، أراقب كلّ حركة يقومون بها، على مدار الشهرين والنصف، كلّ فرد يدخل أو يخرج إلى داخل البيت كان مراقباً من قبلي.

بينما كان حاتم الذي اشترى المنزل لي، هو من يحضر كلّ ما أطلبه منه من مستلزمات البيت والأدوات المنزلية والغذائية.

في إحدى المرات، سمعت أحدهم يفتح الباب، ركضت بسرعة لأرى من يكون قد فتح باب منزلهم، رأيت أبي يخرج منه، تتبعت خطواته كان ذاهباً إلى بيت عمتي ميسون.

وقفت أنتظر عودته قرابة ثلاث ساعات، حتى خرج من بيت عمتي وتوجه إلى الجامع، صلى صلاة العشاء وعاد إلى البيت.

كلّ شيء في حينها كان غير منطقي، أو أشبه بالحلم المرعب.

بقيت على مدار الشهرين والنصف أو أكثر بقليل، أراقب كلّ من يدخل ويخرج من منزل بيت أهلي.

ظل سبب عدم مجيء أحد من أفراد عائلتي إلى المطار بدمشق في تلك الليلة، وعدم استقبالهم لابنتهم في أول مرة أمراً محيراً بالنسبة لي.

كيف يرفضون فتاة من لحمهم ودمهم وهم يعلمون بأنني في حاجة لهم؟

أليس لديهم الفضول لمعرفة ما حدث معي من أحداث غريبة جعلتني أختفي من بيتهم بين ليلة وضحاها؟

أو أن البعد يزيد الحقد والجفاء؟

حتى علمت من إحدى الجارات التي تسكن في الدور الثالث لبناء أهلي، وتدعى أم جاسم، التقيت بها عن طريق المصادفة خلال سلام عابر على الدرج سألتني عن مكان بيتي.

هل أنا المالكة الجديدة في البناء الذي اشتريته من السيد أبي إلياس، قلت لها أجل أنا الجارة الجديدة كنت أرتدي خماراً أسود يغطي كامل وجهي وجسدي.

ثم بعد أن سألتها عن حال الجيران ومن يسكن تطرقت معها للسؤال عن البيت الذي أسكن بجواره أي عن منزل بيت أبي سمير والدي حسن.

أخبرتني أم جاسم بأن كان لهم ابنة صغيرة تدرس في كلية الطب في السنة الأولى وقد ماتت في أحد الانفجارات التي كانت تحدث في دمشق، اسمها "هزار" كانت أم جاسم تقصد من اسم هزار أي أنا، والتي اسمها هزار قد توفيت في أحد الانفجارات التي كانت تقع في دمشق.

في حينها أدركت مدى الفاجعة التي أنا بها، أصبحت ميتة في أعين الجميع، هكذا إذاً الأمر، لقد برر والدي ووالدتي سبب غيابي عن البيت، بأني مت في أحد تلك الانفجارات.

صعدت إلى البيت وبدأت أنتحب من شدة الألم.

من أصعب اللحظات بأن تعلم أنك متوفى في أعين أقرب الناس إليك وأنت ماتزال على قيد الحياة.

حينها فقط أدركت أو عرفت بشكل لا يدعو للشك، لماذا لم يحاول السيد مروان والسيدة جانيت أن يخبراني بالحقيقة ويعيداني إلى بيت أبي وأمي.

في ذات الليلة التي علمت بأني متوفاة، بنظر أفراد عائلتي والجيران والجميع، سمعت أصوات ضحك وضجة أو جلبة في الخارج، وقفت خلف الباب كي

أعرف من أين مصدر تلك الهمسات والضحكات والسلام الحار، كان الجميع يدخل إلى بيت أبي مبتهجاً وفرحاً.

كنت أقف متسمرة خلف الباب، كالعادة، أترقب بحذر كلّ من يدخل أو يخرج إليهم وأتأمل ملامحهم الجميلة.

كانت أختي جنان تشبه القمر بجمالها.

حتى أختي سارة أصبحت شابة جميلة، وملامحها تشبه وجه أمي، وأخي الصغير جلال كبر كثيراً وأصبح شاباً رائعاً، وأختي سمر يبدو أنها قد تزوجت، لأني رأيت بطنها منفوخاً يبدو بأنها حامل وفي أشهرها الأخيرة.

كلّ شيء تغير خلال سبع سنوات مضت.

ثم بعد قليل سمعت صوت غناء وطرب، يصدح من داخل بيت أهلي، كانت هناك حفلة عائلية، تضم جميع أفراد العائلة في منزل عائلتي عند السيد حسن والدي.

تذكرت أن تلك الاجتماعات العائلية، تحدث دائماً بشكل دوري كلّ يوم خميس من نهاية الأسبوع، في بيت أحدهم وهو نوع من أنواع الطقوس المتبعة أو العلاقات الاجتماعية الخاصة، عند العائلات السورية.

وقد جاء موعد الاجتماع الدوري في العائلة، عند بيت أهلي بأن يجتمع الجميع في بيتهم.

كان ذلك الاجتماع، يضم كلاً من عماتي وخالاتي وأبنائهم جميعاً، في المنزل المقابل لمنزلي أي في منزل بيت أهلي سابقاً قبل أن أعلم بأني ميتة.

أمام باب منزلهم، سمعت صوت أمي وهي تستقبل وتتكلم ببهجة وفرح مع أختي جنان وابنة أخيها سراب، فتحت الباب قليلا، رأيتها تغمر سراب ابنة خالي، تضمها إلى صدرها وتقبلها بحرارة وحبّ وتشد على يدها بقوة ثم تغمرها بعطف.

ثار جنوني بهذا المشهد الذي رأيته.

بدأت أتحدث إلى روحي ما الذي يجري من كلّ هذا التميز في المعاملة وكأن أمي السيدة نجلاء خانوم، ليس لها ابنة في الجانب الآخر تتمنى اللقاء بها أو تحلم أن تضمها إلى صدرها، أو أن ترى ما وضع تلك الفتاة المسكينة التي مكثت لساعات طويلة تنتظر أمها أو أي أحد من أفراد عائلتها في قاعة الانتظار بالمطار لساعات طويلة في أول زيارة لها منذ ثلاث سنوات.

مشهد ابنة خالي سراب، وهي تتمايل بين أحضان أمي وتضمها إلى صدرها وتقبلها بحرارة، آثار نار الغيرة والفزع بداخلي، شعرت بالغضب الشديد، وحشرجة خانقة في صوتي.

كدت أصرخ من الوجع، وأنا أقول بقرارة نفسي والدموع تنهمر على وجهي من دون توقف.

لماذا لست أنا من تضمها أمها وتغمرها ألست أنا ابنتها؟

شعرت بإحساس سيئ للغاية، كأني حشرة أو علقة في قعر بركة من الماء القذر، أتطفل على حياة أناس يرفضون هذه الحشرة بأن تقترب منهم، أو بسماع صوتها أو بنطق اسمها.

كان من أكثر ما شجب السخط في داخلي.

لماذا لم يحاول أحد من أفراد عائلتي بأن يسمع قصتي؟

أو تحاول أمي ولو لمرة واحدة، أن تنقذ حياة ابنتها من الجحيم الذي كنت أعيشه بكلّ تفاصيله.

على الرغم من محاولاتي المتكررة، الاتصال بها وهي تعلم جيداً رقم هاتفي، لم تحاول ولو لمرة واحدة أن تتصل بي على الرقم الذي حاولت مراراً وتكراراً أن أتواصل معها عليه خلال الثلاث سنوات التي مضت بل تجاهلت وجودي ولم تكترث لمعرفة حقيقة ما جرى منذ أن غبت عن منزلها.

كان مكوثي في دمشق بالقرب من بيت أهلي، أشبه بانهيار جبل من الجليد، في قعر بحيرة مجمدة من البرد والصقيع.

هل كلّ هذا التخبط والترنح بين الماضي والحاضر، هو السبب في هذا الوضع الذي أضع نفسي به الآن، أو كي أجد لنفسي مبرراً أقنع روحي وعقلي أني ابنة منبوذة وغير مرغوب بها، ضمن هذا الإطار العائلي المتكامل التعقيد، الذي لا يريد أن يطغى عليه أي تغيير أو تبديل، ولا يهتم لمشاعر فتاة صغيرة، حرمتها عصابة مجرمة من حياتها الإنسانية، التي كانت تعيش مع من تحبّهم ويحبّونها، وكيف لي أن أصنف امرأة مثل أمي، بالأمومة وهي تنبذ طفلتها من دون أن تحاول ولو لمرة واحدة أن تلتقي بها أو أن تستمع لها رغم كلّ المحاولات بالاتصال المتكرر سابقاً، ولأكثر من مرة بإيجاد حل للتواصل معها.

كيف أصنفها من صنف الأمهات، وهي صاحبة القلب القاسي، المعتد بالعادات والتقاليد، والحفاظ على الشرف.

أين ذلك الشرف المهدور، وكيف تستطيع أن تنام ويغمض لها جفن وهي تعلم أن لها ابنة تحتاجها وتحتاج حضناً دافئاً تلجئ إليه حين تحتاج إلى هذا المأوى البعيد عن الأشرار.

رغم كلّ ما حدث معي، بقيت أتمنى لو أن ذاكرتي لم تعد لي ولم أعرف من هم أفراد عائلتي، لذا قررت بأن أعود إلى قبرص وأنهي الحلقة الأخيرة من مسلسل العودة إلى دمشق واللقاءات المزيفة بالعائلة، وأنا في طريقي بالذهاب إلى مطار دمشق والعودة إلى بيروت ثم قبرص، شعرت بالشوق والاشتياق للسيدة جانيت والسيد مروان، وإلى الحياة التي كنت أحتسبها جحيماً كانت هي حبل النجاة الذي كنت أستنجد به من الغرق.

بقرار العودة إلى قبرص مرة أخرى، كنت متأكدة هذه المرة بأنه الخيار الوحيد الصحيح في قرارة نفسي وروحي، وبأن أنسى من أنا، تمنيت لو أني لم أبحث يوماً عن الحقيقة، ولم أستعد ذاكرتي.

كم تمنيت لو أني بقيت إنجي التي ترى الدنيا بعيني السيد مروان والسيدة جانيت.

لا شيء سيجعلني بحال أفضل سوى البعد، البعد عن كلّ شيء.

لأنه بكلّ بساطة سأظلّ متوتّرة، طالما أني في مكانٍ يجب أن أشرح للجهلاء كلّ كلمةٍ أقولها لهم كي لا يُساء الظن بي أو فهم ما أريد قوله ومعرفته.

عندي قناعة تامة، أنه كلما شرحت للناس ما يجول بداخلك أو تبرير أفعالك وأقوالك أكثر، ستزداد الكلمات في الشرح لذا سأحتاج إلى الكثير من المفاهيمِ والأقوال غير المبررة قد يطال شرحها، لأبقى أدور في دوائر بدل دائرةٍ واحدةٍ ولن أرتاح، ولن أضع نفسي مرة أخرى في مكان واحد كفأر الحقل.

هل سأنتظر السعادة أو النجاح من الآخرين، لا طبعاً.

لقد تعلمت من السيد مروان كتم الأسرار، وإخفاء المشاعر الحقيقية.

سيبقى كلّ ما مر معي السر الكبير البعيد، الذي لا يعلم به أحد سأدفن هذا السر الكبير في قبر بجانب السيد مروان والسيدة جانيت.

علمتني الحياة أن الإنسان يستطيع أن يصنع من نفسه أشياء كثيرة تشعره بالراحة يجلب السعادة لنفسه بطرق مختلفة، في أي لحظة يحتاج بها إلى السكينة والهدوء بين ذاته وما حوله، أو في أي مكان وجد نفسه فيه، الإنسان قادر ويستطيع أن يصنع حياة كاملة له متكاملة من السعادة.

كنت أستقوي وأردد كلام السيدة جانيت، إن أردت يا إنجي أن تعيشي بحرية تمتعي بجمال الروح، أطلقي العنان للإبداع في عقلك، لا للتعصب في الآراء والأفكار، لأن السعادة الحقيقية في تحقيق أي هدف معين ليس له تاريخ أو وقت، تستطيعين يا انجي القيام به وتحقيقه في أي لحظة كانت من حياتك.

أنا الآن اسمي إنجي حسن عيسى، كما هو مقيد في بطاقتي الجامعية في قبرص، وستبقى بطاقتي الجامعية والشخصية بهذا الاسم ما حييت على وجه الأرض، سأكمل ما بدأت به مع السيد مروان في شركة البناء والإنشاءات العمرانية سأسعى بكلّ ما بوسعي لتكون لي حياة عائلية وأنجب أبناء يكونون لي عونا عندما أصبح امرأة طاعنة في السن.

لن أبحث عن يعقوب، ولا من يشبه السيد مروان ولا شبيهاً لأبي، ولن أعود مرة أخرى إلى دمشق، منذ زمن بعيد ماتت هزار بأعين الجميع وسأحاول بكلّ طاقتي وما أملك من قوة أن أنسى تلك العائلة المحافظة التي رفضت أن أكون في يوم من الأيام فرداً من أفرادها أو جزءاً بسيطاً منها.

سأختار رجلاً يمتلك من البساطة والشجاعة والطيبة الشيء الكثير، أريد أن يكون أبنائي أقوياء، يشبهونني في الجمال والذكاء، أما الطيبة هي المكتسب الوحيد الذي أحتاجه في هذه الحياة، سأبحث عن رجل يمتلك الحنان والأخلاق الطيبة.

لن أخبر أي أحد عما مررت به أو عن الماضي الذي تعرضت له منذ اختطافي إلى وقت ذهابي إلى دمشق وعودتي إلى قبرص خائبة الأمل.

كانت أمي دائماً تخبرني بأنه يجب أن أكون أكثر حرصاً وكتماناً على خصوصية أسراري.

مرددة قائلة: أي أمر يحدث معك يا هزار في المستقبل احتفظي به لنفسك فقط، لا تدعي يدك اليمنى تعلم ما في يدك اليسرى.

الخصوصية أو كتمان الأسرار عن الآخرين يا هزار يحميك من الوقوع في جر الكثير من الأحاديث والمناقشات والاستفسارات التي لا جدوى منها غير إثارة الفتنة والمشاكل التي لا تنتهي إلا بدمار الروح من الداخل.

****

محتويات الرواية

إهداء.....4
مقدمة.....5
خيانة.....8
أيام لن تنساها ذاكرتي.....22
أمور أخرى غير مصنفة.....75
مفاجآت قاتلة.....103
خلف الكواليس.....143
النفق المظلم.....158
طريق الخلاص.....203
اللقاء المنتظر.....207
محتويات الرواية.....239

dewanalarabegypt@gmail.com

01030502390

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.